

ذخائر الفكر والاسلام

٢

المصطلحات الأربعة في القرآن

الإله - الرب - العبادة - الدين

(معرب عن الأردية)

أبو الأعلى المودودي

مكتبة دار الفکر

دمشق

الطبعة الخامسة

ذخائر الفكر والاسلام

٢

المصطلحات الأربعة في القرآن

الإله - الرب - العبادة - الدين

(معرب عن الأردية)

أبو الأعلى المودودي

لشروتوزم

مكتبة دار الفتح دمشق

الطبعة الحاشية

Maudoodi, Syed Ahul 'Ala
Maulana, 1903-

ذخائر الفكر الاسلامي

٢

المصطلحات الأربعة في القرآن

الإله - الرب - العبادة - الدين

(معرب عن الأردية)

أبو الأعلى المودودي

تعريب :
محمد باظم سباني

BP
130
M38



1075432

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم

نشر بـ

هذه رسالة ألفها الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي في سنة ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م ، ونشر فصولها تباعاً في مجلته الشهرية « ترجمان القرآن » ، ثم جمعها ونشرها في رسالة سماها المصطلحات الأربعة في القرآن ، . وما كتبه الأستاذ المودودي نفسه في مقدمته لهذه الرسالة عن أهمية هذه المصطلحات في الاسلام ، فيه ما يغني عن إعادة ذكره في هذا التقديم ، وحسبنا أن نبين هنا تاريخ تأليف هذه الرسالة ، والمناسبة التي دعت إلى تأليفها .

تم تأليف هذه الرسالة سنة ١٣٦٠ هـ ، وهي السنة التي تأسست فيها « الجماعة الإسلامية » في الهند فكان لهذه الرسالة يد - وأي يد - في إيضاح دعوة الجماعة ، وتحديد موقفها من جميع الأحزاب والجمعيات التي كانت قائمة في البلاد ؛ فما تقدم بعدها أحد الاشتراك في الجماعة إلا كان على يئنة تامة من الفرق بين دعوة الجماعة وبين ما تدعوا إليه سائر الأحزاب والجمعيات ، على رغم أن بعضها يدعي أنها ما قامت إلا لأجل الإسلام ونشر دعوته .

وقد ظهر من هذه الرسالة حتى الآن أربع طبعات - في كل طبعة نحو ٣٠٠٠ نسخة - باللغة الأردية ، ولم تنقل حتى يومنا هذا إلى

آية لغة أخرى ، إلا هذه الترجمة العربية التي نهض بها الأخ الفاضل
الاديب الاستاذ السيد محمد كاظم سباق ، من زملاء « دار العروبة
للدعوة الاسلامية » ، وها نحن أولاء نتشرف بتقديمها إلى إخواننا
الناطقين بالضاد .

وهذه الرسالة هي الثانية من رسائلنا - تحلت بالطبع في مدينة
دمشق - معقل الاسلام الحصين - على أيدي إخوان لنا في العلم
والدين ، ممن اجتمعت قلوبنا وقلوبهم على حب الاسلام والاستماتة في
سبيله ، جزاهم الله عن الاسلام وأهله خير الجزاء ، ووفقنا جميعاً
للعمل بما فيه مرضاته ، إنه ولي التوفيق وإنه سميع مجيب .

وقد سبق أن نشر في دمشق رسالة (مبادئ الاسلام) للاستاذ
المودودي ، وثمانى رسائل أخرى نشرت في القاهرة - بحمد القارىء
أسماءها في ختام هذه الرسالة - والمأمول أن تعقبها رسائل أخرى
من هذه السلسلة قريباً إن شاء الله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

لاهور في { ١٣ جمادى الأولى ١٣٧٤ هـ
٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ م

كتبه العاجز الفقير إلى رحمة الله تعالى

محمد عاصم الحداد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الإله والرب والدين والعبادة

هذه الكلمات الأربع أساس المصطلح القرآني وقوامه ، والقطب الذي تدور حوله دعوة القرآن. فجماع ما يدعو إليه القرآن الكريم هو أن الله تعالى هو الإله الواحد الأحد والرب الفرد الصمد ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، ولا يشاركه في ألوهيته ولا في ربوبيته أحد . فيجب على الانسان أن يرضى به إلهاً وأن يتخذه دون سواه رباً ، ويكفر بالوهمية غيره ويبحد ربوبية من سواه ، وأن يعبد وحده ولا يعبد أحداً غيره ويخلص دينه لله تعالى ويرفض كل دين غير دينه سبحانه كما ورد في التنزيل :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ .)

(الأنبياء : ٢٥)

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .) (التوبة : ٣١)

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ

فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء : ٩٢)

(قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ .)

(الأنعام : ١٦٤)

فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا .) (الكهف : ١١٠)

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّاغُوتَ .) (النحل : ٣٦)

(أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أُسْلِمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .) (آل عمران : ٤٨٣)

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ .)

(الزمر : ١١)

(إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

(آل عمران : ٥١)

هذه الآي المدودة إنما سردناها مثالا وأتمودجاً ، وإلا فمن قرأ القرآن وتتبع آياته ، فإنه يحس لأول وهلة أن كل ما نزل به القرآن الكريم من الهدي والارشاد لا يدور إلا حول هذه المصطلحات الأربعة ، وليس موضوع الكتاب وفكرته الأساسية إلا :

أن الله هو الرب والاله .

وأنه لا رب ولا إله إلا هو .

فإياه ينبغي أن يعبد الانسان .

وله وحده ينبغي أن يخلص الدين .

أهمية المصطلحات الأربعة

ومن الظاهر البين أنه لا بد لمن أراد أن يدرس القرآن ويسبر غور معانيه ، أن يتفهم المعاني الصحيحة لكل من هذه الكلمات الأربع ويتلقى مفهومها الكامل الشامل ، فإذا كان الانسان لا يعرف ما الإله ، وما معنى الرب ، وما العبادة ، وما تطلق عليه كلمة الدين فلا جرم ، أن القرآن كله سيمود في نظره كلاماً مهمل لا يفهم من معانيه شيء . فلا يقدر أن يعرف حقيقة التوحيد ، أو يتفطن إلى ماهية الشرك ، ولا يستطيع أن يخص عبادته بالله سبحانه أو يخلص دينه له . وكذلك إذا كان مفهوم تلك المصطلحات غامضاً متشابهاً في ذهن الرجل وكانت معرفته بمعانيها ناقصة فلا شك أنه يلبس

عليه كل ما جاء به القرآن من الهدى والارشاد ، وتبقى عقيدته وأعماله كلها ناقصة مع كونه مؤمناً بالقرآن . فانه ان ينفك يلهج بكلمة لا إله إلا الله ويتخذ مع ذلك آلهة متعددة من دون الله . ولن يبرح يعلم أنه لا رب إلا الله ثم يكون مطيعاً لأرباب من دون الله في واقع الأمر . إنه يجبر بكل صدق وإخلاص بأنه لا يعبد إلا الله تعالى ولا يخضع إلا له ، ولكنه مع ذلك يكون عاكفاً على عبادة آلهة كثيرة من دون الله . وكذلك يصرح بكل شدة وقوة أنه في حظيرة دين الله وكنفه وإن قام أحد بعزوه إلى دين آخر غير الاسلام هجم عليه وناصبه الحرب ، ولكنه يبقى مع ذلك متعلقاً بأذيال أديان متعددة ولا شك أنه لا يدعو أحداً غير الله تعالى ولا يسميه بالاله أو الرب بلسانه ، لكن تكون له آلهة كثيرة وأرباب متعددة من حيث المعاني التي وضعت لها هاتان الكلمتان ، والمسكين لا يشعر أصلاً أنه قد أشرك بالله آلهة وأرباباً أخرى وإذا نبهته إلى أنه عابد لغير الله ومقتسرفٌ للشرك في الدين ، لا نقض عليك يمحش وجهك ، إلا أنه يكون عابداً لغير الله حقاً وداخلاً في غير دينه بدون ريب من حيث مغزى (العبادة) و (الدين) وهو لا يدري مع كل ذلك أن الأعمال التي يرتكبها هي في حقيقة الأمر عبادة لغير الله وأن الحالة التي قد سقط فيها هي في نفس الأمر دينٌ ما أنزل الله به من سلطان .

السبب الحقيقي لهذا الفهم الخاطي ،

بدلنا النظر في عصر الجاهلية وما تبعه من عصور الاسلام أنه لما نزل القرآن في العرب وعرض على الناطقين بالاضاد كانت حينئذ يعرف كل امرئ منهم ما معنى (الإله) وما المراد بـ (الرب) ، لأن كلمتي (الإله)

و (الرب) كانتا مستعملتين في كلامهم منذ ذي قبل ، وكانوا يحيطون علماً بجميع المعاني التي تطلقان عليها . ومن ثم إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ولا رب سواه ولا شريك له في ألوهيته وربوبيته ، أدركوا مادّعوها إليه تماماً وتبين لهم من غير ما لبس ولا إبهام أي شيء هو الذي قد نفاء القائل ومنع غير الله أن يوصف به ؛ وأي شيء قد خصه وأخلصه الله تعالى ، فالذين كفروا إنما كفروا عن بيّنة ومعرفة بكل ما يبطله وينمي عليه كفره بألوهية غير الله وربوبيته ، وكذلك من آمن فقد آمن عن بيّنة وبصيرة بكل ما يوجب قبول تلك العقيدة الأخذ به أو الانسلاخ عنه .

وكذلك كانت كلمتا (العبادة) و (الدين) شائعتين في لغتهم وكانوا يملكون ما العبد ، وما الحال التي يعبر عنها بالعبودية ، وما هو المنهاج العملي الذي يطلق عليه اسم (العبادة) وما معزى (الدين) وما هي المعاني التي تشتمل عليها هذه الكلمة ؟ ومن ثم لما قيل لهم «أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت» وادخلوا في دين الله منفطعين عن الأديان كلها ما أخطأوا في فهم هذه الدعوة التي جاء بها القرآن . وما إن قرعت كلماتها أسماعهم حتى تبينوا : أي نوع من التغيير في نظام حياتهم جاءت تطالبهم به تلك الدعوة ؟

والكنه في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر جعلت تتبدل المعاني الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات ، تلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن ، حتى أخذت تضيق كل كلمة من تلك الكلمات الأربع عما كانت تنسج له وتحيط به من قبل ، وعادت منحصرة في معان ضيقة محدودة ، وبخاصة بدلالات غامضة مستبعدة . وذلك لسببين اثنين :

الاول : قلة الذوق العربي السليم ونضوب معين العربية الخالصة في
العصور المتأخرة ، والثاني أن الذين ولدوا في المجتمع الاسلامي ونشؤوا
فيه ، لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمات (الإله) و (الرب) و (العبادة)
و (الدين) ما كان شائعاً في المجتمع السامي وقت نزول القرآن . ولأجل
هذين السببين أصبح اللغويون والمفسرون في العصور المتأخرة يشرحون
أكثر كلمات القرآن في مساحم اللغة وكتب التفسير بالمعاني التي فهمها
المؤخرون من المسلمين بدلاً من معانيها اللغوية الأصلية ، وذلك من
ذلك أمثلة :

كلمة (الإله) جعلوها كأنها مترادفة مع كلمة الأصنام والأوثان .
وكلمة (الرب) جعلوها مترادفة مع الذي يربي وبشيء والسيدات
القائمة بأمر تربية الخلق وتنشئتهم .

وكلمة (العبادة) جعلوها في معاني التاله والتسك والخضوع
والملاحة بين يدي الله ،

وكلمة (الدين) جعلوها نظيراً لكلمة النحلة (Religion) .

وكلمة (الطاغوت) فسروها بالخصم أو الشيطان .

فكانت النتيجة أن نعلم على الناس أن يدركوا حتى الغرض الحقيقي
والمقصد الجوهرى من دعوة القرآن فإذا سمعوا القرآن ألا يتخذوا من دون
الله إلهاً ، ظنوا أنهم وقوا معاملة القرآن - فيها ما تركوا الأصنام
واعتزلوا الأوثان ؛ والحال أنهم لا يزالون منشغلين بكل ما يسهو ويحيط به
مفهوم (الإله) معاد الأوثان والأصنام ، وهم لا يشعرون أنهم يصلحهم

ذلك قد اتخذوا غير الله إلهاً. وإذا ناداهم القرآن أن الله تعالى هو الرب فلا تتخذوا من دونه رباً، قالوا ها نحن أولاء لا نعتقد أحداً من دون الله مريباً لنا ومتعبداً إلا مرناً، وبذلك قد كُلت عقيدتنا في باب التوحيد، والواقع أنه قد أذعن أكثرهم لربوبية غير الله من حيث المعاني الأخرى التي تطلق عليها كلمة (الرب) غير هذا المعنى - المربي - . وإذا ساء لهم القرآن أن يعبدوا الله واجتنبوا الطاعات، قالوا : لا نعبد إلا وثنان، ونهض الشيطان ونلغنه ولا نخشع إلا لله، فقد امتثلنا هذا الأمر القرآني أيضاً امتثالاً، والسؤال أنهم لا يزالون متمسكين بأذيال الطواغيت الأخرى غير الأصنام المنحوتة من الأحجار؛ وقد خصوا سائر ضروب العبادة - الإلهام إلا التاله - لغير الله، وقل مثل ذلك في (الدين)، فإنه لا يفهم الناس من معنى إخلاص الدين لله تعالى غير أن يتحل المرء ما يسمونه (الديانة الإسلامية) وألا يبقى في ملة الهنادك أو اليهود أو النصارى. ومن هنا يزعم كل من هو معدود من أهل الديانة الإسلامية أنه قد أخلص دينه لله، وألحق أن أغلبيتهم ممن لم يخلصوا دينهم لله تعالى من حيث المعاني الواسعة التي تشتمل عليها كلمة (الدين) .

نتائج هذا الفهم الخاطئ

فمن الحق الذي لا مراء فيه أنه قد خفي على الناس معظم تعاليم القرآن، بل قد غابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزية لمجرد ما غشي هذه المصطلحات الأربعة الأساسية من حجب الجهل . وذلك من أكبر الأسباب التي قد تعارف لا أهلها الوهن والضعف إلى عقائدهم وأعمالهم على رغم قبولهم دين الإسلام وكونهم في عداد المسلمين. ومن أجل ذلك كله

يجدر بنا أن نفصل معاني تلك المصطلحات الأربعة ونشرحها شرحاً كاملاً ، ليتبين غرض القرآن الحقيقي ونعاليه الأساسية .

ومع أني قد حاولت إلامام مفهوم تلك المصطلحات في مقالات لي عديدة تقدم لي كتابها ، غير أن ما قد كتبت حتى الآن لا يكفي في حد ذاته لدفع الأخطاء التي قد تسربت إلى الأذهان في هذا الباب ؛ ولا يكاد يقتنع به الناس ويصدقون إليه لأنهم يحسبون كل ما آتي به من الشرح والتفصيل لمعاني تلك الكلمات من غير استشهاد بأي الكتاب العزيز ومن غير استناد إلى معاجم اللغة -- يحسبونه رأياً لي ارتأيته ؛ والظاهر أن رأيي الشخصي لا يمكن أن يفتح الذين لا يرون رأيي ولا يوافقوني عليه على الأقل ، فأردت في هذه الرسالة أن أبين المعاني الكاملة الشاملة لهذه المصطلحات الأربعة ، من دون أن آتي في ذلك بقول لا يؤيده القرآن أو رأيي لا يستند إلى معاجم اللغة . وسأتناول بالبحث أولاً كلمة (الله) ثم (الرب) ثم (العبادة) ثم (الدين) إن شاء الله تعالى .

أبو الأعلى

١- الآله

التعريف اللغوي

مادة كلمة (الآله) : الحسرة واللام والهاء ، وقد جاء في معاجم اللغة من هذه المادة ما يأتي بيانه فيما يلي : (١)

[أَلَهْتُ إِلَى فُلَانٍ] : سَكَنْتُ إِلَيْهِ

[أَلَهَ الرَّجُلُ بِأَلَهٍ] إِذَا فَزِعَ مِنْ أَمْرٍ نَزَلَ بِهِ فَأَلَهَهُ غَيْرُهُ أَيَّ أَجَارَهُ

[أَلَيْهِ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ] : اتَّجَهَ إِلَيْهِ لَشِدَّةِ شَوْقِهِ إِلَيْهِ .

[أَلَهَ الْفَصِيلُ] إِذَا وَلَعَ بِأَمْتِهِ .

[أَلَهَ إِلَاهَةً وَأَلُوهُتَهُ] : عَبَدَهُ .

وقيل (الآله) مشتق من (لاه يليه ليهياً] : أي احتجب

ويتبين من التأمل في هذه المعاني المناسبة التي جمعت « أله بأله إلهة »

تستعمل بمعنى العبادة — (أي التأله) — (الآله) بمعنى المعبود : —

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/١٩٠ - ٢٠٠ ، وتفسير الثياري بحاشية

تفسير الطبري ١/٦٥ - ٦٦ .

١ - أن أول ما ينشأ في ذهن الإنسان من الخافز على العبادة والثأله يكون ما ناله احتياج المزمع وافتقاره وما كان الإنسان ليخطر بباله أن يعد أحداً ما لم يظن فيه أنه قادر على أن يسد خلته ، وأن يصرفه على الواجب ويؤديه عند الآفات ، وعلى أن يسكن من روعه في حال القلق والاضطراب .

٢ - وكذلك أن اعتقاد المزمع أن أحداً ما قاض الحاجات ومجيب للدعوات ، يستلزم أن يعد أعلى منه منزلة وأسمى مكانة ، والأكثر بعلوه في المازلة فحسب ، بل أن يعترف كذلك بعلوه وغلبته في القوة والأيد .

٣ - ومن الحق كذلك أن ما تقضى به حاجات المزمع غالباً حسب قانون الأسباب والمسببات في هذه الدنيا ، يقع حدث عمله في قضاء الحاجات تحت سمع المزمع وبصره ، وفي حدود لا تخرج من دائرة علمه ، لا ينشئ في نفس المزمع شيئاً من التزوع إلى عبادته أبدأ ،خذ لذلك مثلاً أن رجلاً يحتاج إلى مال يدفعه في بعض حاجته ، فيأتي رجلاً آخر يطلب منه عملاً أو وظيفة فيجيبه الرجل إلى طلبه ويقبله عملاً ، ثم يأجره على عمله ، فإن الرجل لا يخطر له ببال أصلاً - فضلاً عن أن يعتقد - أن الرجل يستحق العبادة من قبله ، لما عد به رأى بأم عينه كل المنافع التي بلغ به نفعه وعرف الطريقة التي اتخذها الرجل لقضاء حاجته . فإن تصور العبادة لا يمكن أن يخطر ببال المزمع إلا إذا كان شخص المعبود وقربه من وراء حجاب الغيب ، وكانت قدرته على قضاء الخواص تحت أستار الخفاء . من هاهنا قد اختبرت المعبود كلمة تتضمن معاني الاحتجاب والغيرة والوله مع اشتغالها على معنى الرفعة والعلو .

٤ — ورابع الأربعة أنه من الأمور الطبيعية التي لا مندوحة عنها أن يتجه الإنسان في شوق وولع إلى من يظن فيه أنه قادر على أن يقضي حاجته إذا احتاج ، وعلى أن يؤويه إذا تلبته التائب ، ويهديه أعصابه عند القلق .

فتبين من ذلك كله أن التصورات التي قد أطلقت من أجلها كلمة (الاله) على المعبود هي : قضاء الحاجة والاجارة والهدئة والتعالي والهيسنة وتملك القوى التي يرجى بها أن يكون المعبود قاضياً للحاجات مجيراً في التوازل وأن يكون متوارياً عن الأنظار بكاد يكون سرّاً من الأسرار لا يدركه الناس ، وأن يفرغ إليه الإنسان ويولع به .

تصور اولاء عنر أهل الجاهلية :

ويجمل بنا بعد هذا البحث الغوي أن ننظر ماذا كانت تصورات العرب والامم القديمة في باب الاكوهية التي جاء القرآن بإبطالها . بقول سبحانه وتعالى .

١ — واتخذوا من دون الله آيةً ليكونوا لهم عزّاً

(مريم : ٨١)

(واتخذوا من دون الله آيةً لهم ينصرون .)

(يس : ٧٤)

يتبين من هاتين الآيتين الكريمتين أن الذين كان يحسبهم أهل

الجاهلية آلهة لأنفسهم كانوا يظنون بهم أنهم أولياؤهم وحماتهم في النواصب
والشدائد وأنهم يكونون غامضين من الخوف والتقص إذا احتسوا بحوارهم

٢ - (فما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وما زادوهم غيرَ تَضْيِيبٍ .)
(هود : ١٠١)

(والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ
يُخْلَقُونَ . أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وما يَشْعُرُونَ أَتَيَبِّحُونَ .
إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ .) (النحل : ٢٠ - ٢٢)

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ^(١) .)
(القصص : ٨٨)

(١) مما ينبغي أن يلاحظ في هذا المقام أن كلمة (الإله) جاء استعمالها في
القرآن بمعنىين اثنين ، أحدهما المعبود الذي يعبد الناس في الواقع ، حقاً كان ذلك
المعبود أم باطلاً ، لا عبرة بذلك ، ولأنها المعبود الذي يستحق في حقيقة الأمر أن
يعبد . وفي هذه الآيات استعملت كلمة (الإله) في الموضعين منها بهذين المعنيين المختلفين .

(وما يستجيب الذين يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءُ ، إِنْ
يَسْتَجِيبُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .) (يونس : ٦٦)
وتتجلى من هذه الآيات بضعة أمور ، أحدها أن الذين كان أهل
الجاهلية يتخذونهم آلهة لهم كانوا يدعونهم عند الشدائد ويستغيثونهم ؛
والثاني : أن آلهتهم أو أئلك لم يكونوا من الجن أو الملائكة أو الأسماء
فحسب بل كانوا كذلك أفراداً من البشر قد ساتوا من قبل ، كما يدل عليه
قوله تعالى : « آمَنَّا بِغَيْرِ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » دلالة واضحة
والثالث : أنهم كانوا يزعمون أن آلهتهم هذه يسمعون دعاءهم ويقدرون على نصرهم .
ولا بد للقارىء في هذا المقام من أن يكون على ذكر من مفهوم الدعاء ،
ومن وضعية الصورة التي يرحوها الانسان من الإله فالمرء إذا كان أصابه العطش
مثلاً فدعا خادمه وأمره بإحضار الماء أو إذا أصيب بمرض فدعا الطبيب
لداوائه ، لا يصح أن يطلق على طلب الرجل للخادم أو للطبيب حكم الدعاء ،
وكذلك ليس من معناه أن الرجل قد اتخذ الخادم أو الطبيب إلهاً له . وذلك
أن كل ما فعله الرجل جارٍ على قانون الملل والأسباب ولا يخرج عن دائرة
حكمه . ولكنه إذا استغاث بولي أو وثى - وقد أجهد العطش أو المرض -
بدلاً من أن يدعو الخادم أو الطبيب ، فلا شك أنه دعاه لتفريج الكربة
واتخذته إلهاً . فإنه دعا وإياً قد ثوى في قبر بعيد عنه بمئات من الأميال ،
فكأنى به يراه سميعاً بصيراً وزعم أن له نوعاً من السلطة على عالم الأسباب

تأثيره على أن يقوم بإبلاغه الماء أو شفائه من المرض ، وكذلك إذا دعا وثناً في مثل هذه الحال يلتمس منه الماء أو الشفاء ، فكأنه يعتقد أن الوثن حكمه نافذ على الماء أو الصحة أو المرض ، كما يقدر به أن يتصرف في الأسباب لقضاء حاجته تصرفاً غيبياً خارجاً عن قوانين الطبيعة ، وصفوة القول أن التصور الذي لأجله يدعو الإنسان الإله ويستغيثه ويتضرع إليه هو لا جرم تصور كونه مالكاً للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة والقوى الخارجة عن دائرة نفوذ قوانين الطبيعة .

٣ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوَّلَكُم مِّنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا
الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . فَلَوْلَا نَصَرَهمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن
دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلَى ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ
بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .)
الاحقاف : ٢٧-٢٨

(وَمَالِيَ لَا أُعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، أَأَتَّخِذُ مِنْ
دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ
شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ .)
(يس : ٢٢ - ٢٣)

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا

إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

(الزمر : ٣)

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ

وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ .) (يونس : ١٨)

فيتجلى من هذه الآيات الكريمة أمور عديدة منها أن أهل الجاهلية ما كانوا يعتقدون في آلهتهم أن الألوهية قد توزعت فيما بينهم ، فليس فوقهم إله قاهر ، بل كان لديهم تصور واضح لآله قاهر كانوا يعبرون عنه بكلمة (الله) في لغتهم . وكانت عقيدتهم الحقيقية في شأن سائر الآلهة أن لهم شيئاً من التدخل والنفوذ في ألوهية ذلك الآله الأعلى ، وأن كلمتهم تتلقى عنده بالقبول وأنه يمكن أن يتحقق أمانينا بواسطتهم ونستدر النفع ونتجنب المضار باستشفاعهم . ولمثل هذه الظنون كانوا يتخذونهم أيضاً آلهة مع الله تعالى . ومن هنا يتبين أن الإنسان إن اتخذ أحداً شافعاً له عند الله ثم أصبح يدعو ويستعين به ويقوم بآداب التبجيل والتعظيم ويقدم له القربات والندور ، فكل ذلك على ما اصطلاح عليه أهل الجاهلية اتخذوا إياه إلهاً . (١)

(١) وما يجب أن يعرفه القارئ في هذا المقام أن الشفاعة قدان : شفاعة يكون من وراءها نوع من أنواع القوة والنفوذ ، ويأبى الشافع إلا أن يقبل شفاعته . وشفاعة لا تقدم إلى المشفوع إليه إلا كما تقدم المرائض تذابلاً ولطفاً .

د - (وَقَالَ اللَّهُ : لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِلَّا هُوَ إِلَهُ

وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونِ .) (النحل : ٥١)

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا .)

(الأنعام : ٨٠)

(إِنِّي نَقُولُ إِلَّا اتِّفَاقَ بَعْضِ آلِهَتِنَا بِسُوءِ) (هود : ٥٤)

ويتضح من هذه الآيات الحكيمية ، أن أهل الجاهلية كانوا يخافون من قبل آلهتهم أنهم إن أسخطوا آلهتهم على أنفسهم لسبب من الأسباب أو أحرَمُوا عَنَائِدَهُمْ بِهِمْ وَعَطَفَهُمْ عَلَيْهِمْ فَاتَتْهُمْ نَوَائِبُ الْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالنِّقْصِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَنَزَلَتْ بِهِمْ نَوَازِلُ أُخْرَى .

ه - (اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ .) (التوبة : ٣١)

لا يكون من وراءها قوة نصر على أن تبطل في كل حال . وأما من ظن أن أحدًا شفعًا عند الله تعالى الأول فلا شك أنه قد اتخذ هذه إلهاً وادركه الله تعالى في الاتومعية . وهذه هي الشفاعة التي يرضها القرآن ويصطفاها ، وأما الشفاعة بالمرئى الثبات فيجوز أن يكون كل من الأبناء والملائكة والصالحين والمؤمنين وعامة العباد شفعين بهذا المعنى إلى الله تعالى ويعن سواه من عباده ، والله جل شأنه أن يقبل شفاعتهم أو لا يقبلها .

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)

(الفرقان : ٤٣)

(وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لَكثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ)

(الأنعام : ١٣٧)

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ)

(الشورى : ٢١)

وفي الآيات بقف المتأمل على معنى آخر الكلمة (الاله) يختلف كل الاختلاف عن كل ما تقدم ذكره من معانيها ، فليس ههنا شيء من تصور السلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة ، فالذي اتَّخَذَ إلَهاً هو إما واحد من البشر أو نفس الإنسان نفسه ، ولم يتخذ ذلك إلهاً من حيث أن الناس يدعونه أو يعتقدون فيه أنه يضرهم وينفعهم ، أو أنه يستجيب به ، بل قد اتخذوه إلهاً من حيث تلقوا أمره شرعاً لهم ، واثعروا بأمره وانتهوا عما نهى عنه ، واتبعوه فيما حمله وحرمه ، وزعموا أنه الحق في أن يأمر وينهى بنفسه ، وليس فوقه سلطة قاهرة يحتاج إلى الرجوع والاستناد إليها . قالآية الأولى تبين لنا كيف اتخذت اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً وآلهة من دون الله ، كما بين ذلك الحديث النبوي الشريف فيما رواه الإمام الترمذي وابن

جرير من طريق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه ، أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي عنقه صليب من ذهب وهو يقرأ هذه الآية ، قل ، فقلت : إنهم لم يعبدوه ، فقال : بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوه ، فذلك عبادتهم إياه .

وأما الآية الثانية فمنها ما أوضح كل الموضوع ، وذلك أن من يتبع هوى النفس ويرى أمره فوق كل أمر فقد اتخذ نفسه إلهاً له في واقع الأمر . أما الآيتان الثانيةان بعدهما فإنه وإن وردت فيها كلمة (الشركة) (الاله) فالمراد بالشركة هو الاشتراك بالله تعالى في الألوهية . ففي هاتين الآيتين دلالة واضحة على أن الذين يرون أن ما وضعه رجل أو طائفة من الناس من قانون أو شرعة أو رسم هو قانون شرعي من غير أن يستند إلى أمر من الله تعالى ، فهم يشركون ذلك الشارع بالله تعالى في الألوهية .

مركز الأمر في باب الألوهية

إن جميع ما تقدم ذكره من المعاني المختلفة لكلمة (الاله) يوجد فيها بينها ارتباط منطقي لا يخفى على التأمل المستبصر . فالذي يتخذ كائناً ما ولياً له ونصيراً وكاشفاً عنه السوء ، وقاضياً حاجته ومنجياً لدعائه وقادراً على أن ينفعه ويضره ، كل ذلك بالمعاني الخارجية عن نطاق السنن الطبيعية ، يكون السبب لاعتقاده ذلك ظنه فيه أن له نوعاً من أنواع السلطة على نظام هذا العالم . وكذلك من يخاف أحداً ويثق به ويرى أن سخطه يحجر عليه الضرر ومرضاه تجلب له المنفعة ، لا يكون مصدر اعتقاده ذلك وعمله إلا ما يكون في ذهنه من تصور أن له نوعاً من السلطة .

على هذا الكون . ثم ان الذي يدعو غير الله ويفزع إليه في حاجته بعد
إيمانه بالله العلي الاعلى ، فلا يعشه على ذلك إلا اعتقاده فيه أن له شركاً
في ناحية من نواحي السطة الالهية . وعلى غرار ذلك من يتخذ حكم
أحد من دون الله قانوناً ويتلقى أوامره ونواهيه شريعة متبعة فإنه أيضاً
يعترف بسلطته القاهرة . فخلاصة القول أن أصل الالهية وجوهرها هو
السلطة سواء أكان يعتقدونها الناس من حيث أن حكمها على هذا العالم حكم
مهم على قوانين الطبيعة ، أو من حيث أن الانسان في حياته الدنيا
مطيع لأمرها وتابع لأرشادها ، وأن أمرها في حد ذاته واجب الطاعة
والإذعان .

استدلال القرآن

وهذا هو تصور السلطة الذي يجعله القرآن الكريم أساساً لما يأتي
به من البراهين والحجج على إنكار ألوهية غير الله ، وإثبات الألوهية لله
تعالى وحده . فالذي يستدل به القرآن في هذا الشأن هو أنه لا إله
جميع السلطات والصلاحات في السماوات والأرض إلا الله . فالخلق مختص
به ، والنعمة كلها بيده ، والأمر له وحده ، والقوة والحول في قبضته ،
وكل ما في السماوات والأرض قانت له ومطيع لأمره طوعاً وكرهاً ، ولا
سلطة لأحد سواه ولا ينفذ فيها الحكم لأحد غيره ، وما من أحد دونه
يعرف أسرار الخلق والنظام والتدبير ، أو يشاركه في صلاحيات حكمه .
ومن ثم لا إله في حقيقة الأمر إلا هو ، وإذا لم يكن في الحقيقة إله آخر

من دون الله ، فكل ما تأتونه من الأفعال ، متقدين غيره إلهاً باطلاً من
أساسه ، سواء أكان ذلك دعاءكم إياه واستجاركم به أم كان خوفكم
إياه ورجاءكم منه ، أم كان اتخاذكم إياه شافعاً لدى الله ، أم كان اطاعتكم
له وامتناعكم لأمره ، فإن هذه الأواصر والعلاقات التي قد عقدتموها
مع غير الله ، يجب أن تكون مختصة بالله سبحانه لأنه هو الذي يملك السيادة
دون غيره .

وأما الأسلوب الذي يستدل به القرآن الكريم في هذا الباب ،
فقد وثق بيانه في كلامه البليغ المعجز :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(الزخرف : ٨٤)

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (وَالَّذِينَ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (إلهم

إِلَهُ وَاحِدٌ .) (النحل : ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ

غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ،

فَأَنِّي تُوفِّكُونَ .) (فاطر : ٣)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ .) (الأنعام: ٤٦)

(وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ .) (القصص: ٧٠ - ٧٢)

(قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظهير . وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ .) (سبا: ٢٢ : ٢٣)

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ)

وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسُجَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . (الزمر : ٥)

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ
مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا
مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ .) (الزمر : ٦)

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا
إِلَّا اللَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا
وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ
حَاجِزًا . إِلَّا اللَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، أَمَّنْ يُجِيبُ
الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ .
إِلَّا اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ . أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرَى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَّا اللَّهُ

مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ يُبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهٌُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا
بِرَهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . (النمل : ٦٠ - ٦٤)

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا . وَاتَّخَذُوا
مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ
لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا .)
(الفرقان : ٢ : ٣)

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ
لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ذَلِكَُمُ اللَّهُ
رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ وَكِيلٌ) . (الأنعام : ١٠١ - ١٠٢)

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ
كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا

إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . (البقرة : ١٦٥)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ) (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .)
(الأحقاف : ٥٤)

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش
عما يصفون - لا يسئل عهما يفعل ولا يستلون .)
(الأنبياء : ٢٢ - ٢٣)

(ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا ذهب كل
إله بما خلق ولعلا بعثهم على بعض .) (المؤمنون : ٩١)
(قُلْ لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش
سبيلاً . سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .)

(الاسراء : ٤٢ - ٤٣)

وفي جميع هذه الآيات من أولها إلى آخرها لا نجد إلا فكرة رئيسية واحدة

ألا وهي أن كلا من الألوهية والسلطنة تستلزم الأخرى وأنه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح. فاللهي لسلطنة له ، لا يمكن أن يكون إلهاً ولا ينبغي أن يتخذ إلهاً. وأما من يملك السلطنة فهو الذي يجوز أن يكون إلهاً وهو وحده ينبغي أن يتخذ إلهاً. ذلك بأن جميع حاجات المرء التي تتعلق بالاله أو التي يضطر المرء لأجلها أن يتخذ أحداً إلهاً له لا يمكن قضاء شيء منها من دون وجود السلطنة. ولذلك لا معنى للألوهية من لسلطنة له ، فإن ذلك أيضاً مخالف للحقيقة ، ومن النفخ في الرماد أن يرجع إليه المرء ويرجو منه شيئاً .

والأسلوب الذي يستدل به القرآن واضحاً بين يديه هذه الفكرة الرئيسية ، يمكن القارئ أن يفهم مقدماته ونتائجها حق الفهم بالترتيب الآتي :

١- إن أعمال قضاء الحاجة وكشف الضرر والإجارة والتوفيق والنصر والرفقة والحماية وإجابة الدعوات التي قدتها وأنتم بها وصغرتم من شأنها ، ما هي بأعمال هينة في حقيقة الأمر ، بل الحق أن صلتها وثيقة بالقوى والسلطات التي تتولى أمر الخلق والتدبير في هذا الكون. فإنكم إن تأملتم في المهاج الذي تقضي به حوائجكم الثافية الحاضرة وعرفتم أن قضاءها مستحيل من غير أن تتحررتم لأجله عوامل لا تحصى في ما سكوت الأرض والسماء خلوا لذلك مثلاً كأساً من الماء تشربونها أو حبة من القمح تأكلونها فما أدراككم إذ تعمل كل من الشمس والأرض والرياح والبحار قبل أن تنهياً لكم هذه وتصل إلى أيديكم. فالحق أنه لا تتطلب إجابة دعائكم

وقضاء حاجتكم وما إليها من الشؤون سلطة هيبة ، بل يتطلب ذلك سلطة يقتضيها ويستلزمها خلق السماوات والأرض وتحريك السيارات وتصريف الرياح وإنزال الأمطار وبكلمة موجزة يقتضيها ويتطلبها تدير نظام هذا الكون بأسره .

٢ - وهذه السلطة غير قابلة للتجزئة ، فلا يمكن أبداً أن تكون السلطة في أمر الخلق بيد وفي أمر الرزق بيد أخرى ، وأن تكون الشمس مسخرة لهذا وتكون الأرض مذلة لذلك . كما لا يمكن أن يكون الانشاء في يد والمرض والشفاء في يد أخرى ، والموت والحياة بيد ثالثة . فانه لو كان الأمر كذلك لما أمكن لنظام هذا الكون أن يقوم له قائمة . فما لا بد منه أن تكون جميع السلطات والصلاحيات بيد حاكم واحد يرجع إليه كل ما في السماوات والأرض . فإِنَّ نظام هذا العالم يقتضي أن يكون الأمر كذلك وهو في الواقع كذلك :

٣ - وإذا كانت السلطة كلها بيد الحاكم الواحد ولم يكن لأحد غيره نصيب منها ولا قطيسر ، فاللهوية أيضاً مخصوصة به لا محالة ، وخاصة له دون غيره ولا شريك له فيها . فلا يملك أحد من دونه أن يعيثك أو يستجيب دعائك أو يحيرك أو يكون حامياً لك ونصيراً أو ولياً ووكيلاً ، أو يملك للنشئ من النفع أو الضرر . إذاً لا إله الاكم غير الله بمعنى من تلك المعاني التي قد تخطر ببالكم ، حتى إنه لا يمكن أن يكون أحد إلهاً الاكم بأن له دالة عند حاكم هذا الكون وتقبل شفاعته لديه ، لمكانه من التقرب عنده .

كلا بل ليس في وسع أحد أن يتصدى لأمر من أمور حكمه وتديره ، ولا يستطيع أحد أن يتدخل في شيء من شؤونه ، وكذلك قبول الشفاعة أو رفضها متوقف على مشيئته وإرادته ، وليس لأحد من القوة والنفوذ ما يجعل شفاعته مقبولة لديه .

٤ - وما يقتضيه توحيد السلطة العليا أن يكون جميع ضروب الحكم والأمر راجعة إلى مسيطر قاهر واحد ، وإلاّ ينتقل منه جزء من الحكم إلى غيره . فإنه إذا لم يكن الخلق إلاّ له ولم يكن له شريك فيه ، وإذا كان هو الذي يرزق الناس ولم تكن لأحد من دونه يد في الأمر ، وإذا كان هو القائم بتدبير نظام هذا الكون وتسيير شؤونه ولم يكن له في ذلك شريك ، فما يتطلبه العقل إلاّ أن يكون الحكم والأمر والتشريع إلاّ بيده كذلك ولا مبرر لأن يكون أحد شريكاً له في هذه الناحية أيضاً . وكما أنه من الخطأ أن يكون أحد غيره مجيباً للدعوة الداعي وقاضياً لحاجة المحتاج ، وخبيراً المضطر في دائرة ملكوته في السموات والأرض ، فمن الخطأ والباطل كذلك أن يكون أحد غيره حاكماً مستقلاً بنفسه ، وأمرأ مستبداً بحكمه ، وشارعاً مطلق اليد في تشريعه ، إن الخلق والرزق والاحياء والإنامة ، وتسخير الشمس والقمر ، وتكوين الليل والنهار والقضاء والقدر ، والحكم والملوك ، والأمر والتشريع ... كل أولئك وجوه مختلفة للسلطة الواحدة ، ومظاهر شتى للحكم الواحد ، والحكم والسلطة لا يقبل شي ، منها التجزئة والتقسيم البتة . فالذي يعتقد أن أمر كائن مامن دون الله مما يجب إطاعته والاذعان له

بغير سلطان من عند الله ، فإنه يأتي من الشرك بمثل ما يأتي به
الذي يدعو غير الله ويسأله . وكذلك الذي يدعي أنه مالك الملك ،
والسيطر القاهر ، والحاكم المطلق بالمعاني السياسية (١) ، فإن دعواه
هذه كدعوى الألوهية ممن ينادي بالناس : « إني وليكم وكفيلكم
وحاميكم وناصركم » ، ويريد بكل ذلك المعاني الخارجة عن نطاق السنن
الطبيعية . ثم ترأته يدعوا في القرآن أن الله تعالى لا شريك له في
الخلق وتقدير الأشياء وتدير نظام العالم ، جاء معه أن الله له الحكم وله
الملك ليس له شريك في الملك ، مما يدل دلالة واضحة على أن الألوهية
تشتل على معاني الحكم والملك أيضاً ، وأنه مما يستلزمه توحيد الإله ألا
يسرك بالله تعالى في هذه المعاني كذلك . وقد فصل القول في ذلك أكثر
ما تقدم فيما يلي من الآيات :

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مَنْ أَمَرَ . وَتَنَزَعَ
الْمَلِكُ مَنْ تَشَاءُ وَتُعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ .)
(آل عمران : ٢٦)
(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ .)
(الناس : ١ - ٣)

(١) انظر تحقيق ذلك وبحثه في رسالة (تفاريف الإسلام السياسية) للذراف

وقد صرح القرآن بالأمر بأكثر من كل ما سبق في (سورة غافر) :
حيث جاء :

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنْ الْمُلْكُ

الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .) (غافر : ١٦)

أي يوم يكون الناس قد انقسمت الحجب عنهم ، ولا يخفى على الله خافية من أمرهم ، ينادي المنادي : لمن الملك اليوم ؟ . ولا يكون الجواب إلا أن الملك لله الذي قد غلبت سلطته جميع الخلق ، وأحسن ما يفسر هذه الآية مارواه الإمام أحمد بن حنبل — رحمه الله — عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر (وما قد رواه الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسعوات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ورسول الله ﷺ يقول : هكذا بيده ويحركها ، يقبل بها ويدبر ، يمجده الرب نفسه ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا : امخرن به (١) .

(١) نخرج الحديث في الملحق الخامس في آخر الكتاب .

٢ - الرب

التحقيق اللغوي

مادة كلمة (الرب) : الراء والباء المضغفة (١) ، ومعناها الأصلي الاسامي : التربية ، ثم تشعب عنه معاني التصرف والتعهد والاستصلاح والاعتماد والتكامل ، ومن ذلك كله تنشأ في الكلمة معاني العلو والرئاسة والتملك والسيادة . ودونك أمثلة لاستعمال الكلمة في لغة العرب ب تلك المعاني المختلفة : (٢)

(١) قال ابن فارس في (مقاييس اللغة) ٣/٣٨١ : ٣٨٢ مادة (رب) :
« الراء والباء يدل على أصول الأول : إصلاح الشيء والقيام عليه ، فالرب : الثالث ،
والخالق ، والمصاحب ، والرب : المصالح للشيء . .
والأصل الآخر : لزوم الشيء والافادة عليه ، وهو مناسب الأصل الأول . .
والأصل الثالث : ضم الشيء للشيء وهو أيضاً مناسباً قبله : ومعنى أنعم النظر كان الباب
كله قياساً واحداً . . » اهـ

(٢) انظر (لسان العرب) مادة (رب) ١/٣٨٤ - ٣٩٤ ، و (القاموس
المبسط) مادة (رب) . والمخصص : ١٧/١٥٤ .

(١) التربة والتنشئة والإغااء :

يقولون (ربُّ الولد) أي ربُّه حتى أدركه في (الرَيْب) هو الصبي الذي تربيته و (الرَيْبَةُ) الصبية . وكذلك تطلق الكلمتان على الطفل الذي يربي في بيت زوج أمه و (الرَيْبَةُ) أيضاً الحاضنة ويقال (الرَّابَةُ) لامرأة الأب غير الأم ، فانها وإن لم تكن أم الولد ، تقوم بتربيته وتنشئته . و (الراب) كذلك زوج الأم . (المرْبَّب) أو (المرْبِي) هو الدواء الذي يحترق ويسدُّ خرق . و (رَبُّ يَرْبُ رَبًّا) من باب نصر معناه الإضافة والزيادة والانتماء ، فيقولون (ربُّ النعمة) : أي زاد في الاحسان وأمعن فيه .

(٢) الجمع والحشد والتهيئة :

يقولون : (فلان يرب الناس) أي يجمعهم أو يجتمع عليه الناس ، ويسدون مكان جمعهم (بالمرَّبِّ) و (التَّربُّب) هو الانضمام والتجمع .

(٣) التعهد والاستصلاح والرعاية والكفالة :

يقولون (رب ضيعة) أي تعهد بها وراقب أمرها . قال صفوان بن أمية لأبي سفيان : لأن ربي رجل من قريش أحب إلي من أن يرسي رجل من هوازن ، أي يكفلني ويحفظني تحت رعايته وعنايته . وقال علقمة بن عبدة :

وكنتم أمراء أقضت إليكم ربائتي وقبلكم ربتي قضيت ربوب (١)
أي انتهى إليكم الآن أمر ربائتي وكفائتي بعد أن رباني قبلك ربوب
فلم يتمدوني ولم يصلحوا شأني ، ويقول الفرزدق :

كانوا ككافة حمقاء إذ حققت سلامها في أديم غير مريب (٢)
أي الأديم الذي لم يلبس ولم يدبغ . ويقال (فلان يرب صنعة عند فلان)
أي يشتغل عنده بصناعته ويتمرن عليها ويكسب على يده المهاره فيها .
(١) العلاء والسيادة والرئاسة وتنفيذ الأمر والتصرف .

يقولون (قد رب فلان قومه) : أي ساسهم وجعلهم يتقادون له .
و (رببت القوم) أي حكمتهم وسدتهم ، ويقول الجيد بن ربيعة :
وأهلكن يوماً رب كندة وابنة ورب معد بين خبت وعمر (٣)
والمراد رب كندة ههنا سيد كندة ورئيسهم . وفي هذا المعنى
يقول النابغة الذبياني :

نحسب إلى النعمان حتى تنالته فدى لك من رب تلبيدي وطاري (٤)

(١) البيت في ديوانه : ١٣٢ والمفضليات : ١٩٤/٢ ، واللسان (رب)
ومقاييس اللغة : ٣٨٣/٢ ، وتفسير الطبري : ٤٨/١ ، والصحاح (رب)
والخصص : ١٥٤/١٧ .

(٢) البيت في اللسان (سلا) ، والسلا : الدعوى .

(٣) البيت في تفسير الطبري : ١٧/١ ، وتفسير الطبري : ١٩/١

والخصص : ١٥٤/١٧ .

(٤) البيت في تفسير الطبري : ١/١ ، طبع وزارة المعارف : تخفيف نحو : شاكرو
(طاري وتلبيدي) ، وهو كذلك في الديوان : ٨٩ ، والخصص : ١٥٤/١٧ ، والخريف :
هو المال المستحدث ، والتالدي : المال العتيق الذي ولد عندك .

(هـ) التملك :

قد جاء في الحديث أنه سأل النبي ﷺ : أرب غنم أم رب ابل ؟ أي أمالك غنم أنت أم مالك ابل ؟ وفي هذا المعنى يقال لصاحب البيت (رب الدار) وصاحب الناقة : (رب الناقة) ومالك الضيعة : (رب الضيعة) وتأتي كلمة الرب بمعنى السيد أيضاً فتستعمل بمعنى ضد العبد أو الخادم .



هذا بيان ما يتشعب من كلمة (الرب) من المعاني . وقد أخطأوا لعمر الله حين حصروا هذه الكلمة في معنى المربي والمنشيء ، ورددوا في تفسير الربوبية : هذه الجنة ، هو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام . والحق أن ذلك إنما هو معنى واحد من معاني الكلمة المتعددة الواسعة . وبانعام النظر في سمة هذه الكلمة واستعراض معانيها المتشعبة يتبين أن كلمة (الرب) مشتقة على جميع ما يأتي بيانه من المعاني :

- ١ - المربي الكفيل بقضاء الحاجات ، والقائم بأمر التربية والتنشئة .
- ٢ - الكفيل والرقيب ، والمتكفل بالتمهد وإصلاح الحال .
- ٣ - السيد الرئيس الذي يكون في قومه كالقبط يجتمعون حوله .
- ٤ - السيد المطاع ، والرئيس صاحب السلطة النافذ الحكم ، والمعترف له بالعلو والسيادة ، والمالك لعدا حيات التصرف .
- ٥ - الملك والسيد .



استعمال كلمة (الرب) في القرآن .

وقد جاءت كلمة (الرب) في القرآن بجميع ما ذكرناه آنفاً من معانيها .

ففي بعض المواضع أريد بها معنى أو معنيان من تلك المعاني . وفي الأخرى أريد بها أكثر من ذلك . وفي الثالثة جاءت الكلمة مشتملة على المعاني الخمسة بأجمعها في آن واحد . وهذا نحن نبين ذلك بأمثلة من آي الذكر الحكيم .

بالمعنى الأول

قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ^(١) (يوسف : ٢٣)

بالمعنى الثاني وباشترائك شيء من تصور المعنى الأول .

(فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين
والذي هو يطمعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين .)
(الشعراء : ٧٧ - ٨٠)

(١) لا يذهبن بأحد الخلق أن يوسف عليه السلام أراد بكلمة (ربي) في الآية عزيز مصر ، كما ذهب إليه بعض المفسرين . وإنما يرجع الضمير في (إنه) إلى الله الذي قد استعاذ به يوسف عليه السلام بقوله : (معاذ الله) . ولما كان المشار إليه قريباً من خير الإشارة لأي حاجة بنا إلى أن نتمسك به متقارباً إليه آخر لم يذكر قريباً منه .

ونقول : مانعاً الأستاذ المودودي من أن الضمير في (إنه) يعود على عزيز مصر رواء الطبري في التفسير ١/٢٨٠ من وجوه عن مجاهد وابن اسحاق . ولم ينقل غيره . وقد روى الوجه الذي ذهب إليه الأستاذ المودودي الطبري في (مجمع البيان) ٢/ ٢٢٣ فقال : « . . . وقيل : أن الهاء عائد إلى الله سبحانه ، والمعنى أن الله ربي رفع من علي وأحسن إلي وجهاتي نبياً فلا أعصيه أبداً » . اهـ .

(وما يَكُم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسَّكم الضرُّ فإليهِ
تَجَّارُونَ ، ثم إذا كشفَ الضرَّ عنكم إذا فريقٌ منكم
برَبِّهم يُشِرُّ كُونَ .) (النحل : ٥٣ - ٥٤)

(قُلْ أَغِيرَ اللهُ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ .)
(الأنعام : ١٦٤)

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا .)
(المزمل : ٩)

بالمعنى الثلاث

(هو رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (هود : ٣٤)

(ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ .) (الزمر : ٧)

(قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا) (سبأ : ٢٦)

(وَمَنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ

أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ

يُحْشَرُونَ .) (الأنعام : ٣٨)

(وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ .)

(يس : ٥١)

بالمعنى الرابع وباشترائك بعض تصور المعنى الثالث .

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .)

(التوبة : ٣١)

(وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .)

(آل عمران : ٦٤)

والمراد بالأرباب في كلتا الآيتين الذين تتخذهم الأمم والطوائف
عاداتها ومرشديها على الإطلاق . فتدعون لأمرهم ونهيهم ، وتتبع شرعهم
وقانونهم ، وتؤمن بما يحلون وما يحرمون بغیر أن يكون قد أنزل
الله تعالى به من سلطان ، وتحسبهم فوق ذلك أحقاً بأن يأمرؤا
وينهؤا من عند أنفسهم .

(أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَدْعُو رَبَّهُ مُخَمَّراً .) ... (وقال الذي ظنَّ أَنَّهُ

ناجٍ مِنْهَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ
رَبِّهِ .) (فلما جاءه الرسولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ

مَا بَالُ الذُّسُوءِ اللَّاقِي قَطْعَ أَيْدِي مَنْ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ
عَلِيمٌ . (يوسف : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣)

قد كرر يوسف عليه السلام في خطابه لأهل مصر في هذه الآيات
تسمية عزيز مصر بكلمة (ربهم) فذلك لأن أهل مصر بما كانوا
يؤمنون بمكانته المركزية وسلطته العليا ، ويمتقدون أنه مالك الأمر
والنهي ، فقد كان هو ربهم في واقع الأمر ، وبخلاف ذلك لم يرد
يوسف عليه السلام بكلمة (الرب) عندما تكلم بها بالنسبة
لنفسه إلا أنه تعالى فإنه لم يكن يمتقد فرعون ، بل الله وحده
المسيطر القاهر ومالك الأمر والنهي .

بالمعنى الخامس :

(فليعبُدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم)

من خوف . (قريش : ٣ - ٤)

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ .)

(الصافات : ١٨٠)

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ .)

(الأنبياء : ٢٢)

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .)

(المؤمنون : ٨٦)

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ .)

(الصافات : ٥)

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَى .) (النجم : ٤٩)

تصورات الأمم الضالة في باب الربوبية

وما تقدم من شواهد آيات القرآن ، تتجلى معاني كلمة (الرب) كالشمس ليس دونها غمام . فالآن يجمل بنا أن ننظر ماذا كانت تصورات الأمم الضالة في باب الربوبية ، ولماذا جاء القرآن ينقضها ويرفضها ، وما الذي يدعو إليه القرآن الكريم ؟ ونعل من الأجدر بنا في هذا الصدد أن نتناول كل أمة من الأمم الضالة التي ذكرها القرآن منفصلة بعضها عن بعض ، فنبحث في عقائدها وأفكارها حتى يستبين الأمر ويخلص من كل لبس أو إيهام .

قوم نوح عليه السلام

إن أقدم أمة في التاريخ يذكرها القرآن هي أمة نوح عليه السلام ، ويتضح مما جاء فيه عن هؤلاء القوم أنهم لم يكونوا جاحدين بوجود

الله تعالى ، فقد روى القرآن نفسه قولهم الآتي في ردّهم على دعوة نوح عليه السلام :

(ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضلَ عليكم ، ولو شاءَ اللهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً) (المؤمنون : ٢٤)

وكذلك لم يكونوا يحجدون ككون الله تعالى خالق هذا العالم ، وبكونه رباً بالمعنى الأول والثاني ، فإنه لما قال لهم نوح عليه السلام (هو ربكم وإليه ترجعون) (هود : ٣٤)

و (استغفروا ربكم إنه ، كان غفاراً) و (ألم ترَوا كيفَ خلقَ اللهُ سبعَ سمواتٍ طباقاً وجعلَ القمرَ فيهنَ نوراً وجعلَ الشمسَ سراجاً واللهُ أنبتكم من الأرض نباتاً .) (نوح : ١٠ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧)

لم يقم أحد منهم يرد على نوح قوله ويقول : ليس الله ربنا ، أو ليس الله بخالق الأرض والسماء ولا بخالقنا نحن ، أو ليس هو الذي يقوم بتدبير الأمر في السموات والأرض .

ثم إنهم لم يكونوا جاحدين أن إله لهم ، ولذلك دعاهم نوح عليه السلام بقوله : (ما لكم من إله غيره) فإن القوم لو كانوا كافرين بالوهمية الله تعالى ، إذاً لكانت دعوة نوح إليهم غير تلك الدعوة وكان قوله عليه السلام حينئذ من مثل : يا قوم ! اتخذوا الله إلهاً .

فالسؤال الذي يخالج نفس الباحث في هذا المقام هو : أي شيء كان إذا موضوع النزاع بينهم وبين نوح عليه السلام . وإنما إذا أرسلنا النظر لأجل ذلك في آيات القرآن وتبينها ، تبين لنا أنه لم يكن موضوع النزاع بين الجانبين إلا أمرين اثنين : أولهما أن نوحاً عليه السلام كان يقول لقومه : إن الله الذي هو رب العالمين والذي تؤمنون بأنه هو الذي قد خلقكم وخلق هذا العالم جميعاً ، وهو الذي يقضي حاجاتكم ، هو في الحقيقة إلهكم الواحد الأحد ولا إله إلا هو ، وليس لأحد من دونه أن يقضي لكم الحاجات ويكشف عنكم الضر ويسمع دعواتكم ويفيكم ، ومن ثم يجب عليكم ألا تعبدوا إلا إياه ولا تخضعوا إلا له وحده .

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ . (الأعراف : ٥٩)
 وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي .
 (الأعراف : ٦١ - ٦٢)

وكان قومه يخلاف ذلك مصرين على قولهم بأن الله هو رب العالمين دون ريب . إلا أن هناك آلهة أخرى لها أيضاً بعض التدخل في تدبير نظام هذا العالم ، وتتعلق بهم حاجتنا ، فلا بد أن تؤمن بهم كذلك آلهة لنا مع الله :

(وقالوا لا تذرن آياتككم ولا تذرن وداً ولا سواعاً)

(ولا يغوث ويعوق ونسراً) . (نوح : ٢٣)

وثانيهما أن اقوم لم يكونوا يؤمنون برؤية الله تعالى إلا من حيث إنه خالقهم ، جميعاً ومالك الأرض والسموات ، ومدير أمر هذا العالم ، ولم يكونوا يقولون بأنه وحده هو الحقيق . كذلك — بأن يكون له الحكم والسلطة القاهرة في أمور الأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسة وسائر شؤون الحياة الانسانية ، وبأنه وحده أيضاً هادي السبيل وواضع الشرع ومالك الأمر وانتهي ، وبأنه وحده يجب كذلك أن يتبع . بل كانوا قد اتخذوا رؤساءهم وأخبارهم أرباباً من دون الله في جميع تلك الشؤون . وكان يدعوهم نوح عليه السلام — بخلاف ذلك إلى ألا يجعلوا الربوبية يتقسمها أرباب متفرقة بل عليهم أن يتخذوا الله تعالى وحده رباً بجميع ما تشتمل عليه كلمة (الرب) من المعاني وأن يتبعوه ويطيعوه فيما يسلطهم من أوامر الله تعالى وشريعته نائباً عنه ، فكان يقول لهم :

(إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله واطيعوا)

(الشعراء : ١٠٧ - ١٠٨)

عاد قوم هود

ويذكر القرآن بعد قوم نوح عدداً قوم هود عليه السلام . ومعلوم

أن هذه الأمة أيضاً لم تكن جاحدة بوجود الله تعالى ، وكذلك لم تكن تكفر بكونه إلهاً . بل كانت تؤمن برؤية الله تعالى بالمعاني التي كان يؤمن بها قوم نوح عليه السلام . أما النزاع بيننا وبينها فهو حول عليه السلام فلم يكن إلا حول الأمرين الآخرين اللذين كان حولهما نزاع بين نوح عليه السلام وقومه يدل على ذلك ما يأتي من النصوص القرآنية دلالة واضحة :

(وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ .) (الأعراف : ٦٥)

(قالوا أجتئنا لعبد الله وحده وندرك ما كان يعبد آباؤنا .) (الأعراف : ٧٠)

(قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة .) (فصلت : ١١)

(وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رُسُلَهُ واتَّبَعُوا أمرَ كلِّ جبارٍ عنيد .) (هود : ٥٩)

نمود قوم صالح

ويأتي بعد ذلك نمود الذين كانوا أطغى الأمم وأعصاها بعد عاد وهذه الأمة أيضاً كان ضلالها كضلال قومي نوح وهود من حيث

الأصل والمبدأ فما كانوا جاحدين بوجود الله تعالى ولا كافرين بكونه
 إلهاً ورباً للخلق أجمعين. وكذلك ما كانوا يستكفون عن عبادته والخضوع
 بين يديه ، بل الذي كانوا يمجّدونه هو أن الله تعالى هو الإله الواحد وأنه
 لا يستحقّ العبادة إلا هو ، وأن الربوبية خاصة له دون غيره بجميع معانيها.
 فأنهم كانوا مصرّين على إيمانهم بآلية أخرى مع الله وعلى اعتقادهم أن
 أولئك يسمعون الدعاء ، ويكشفون الضر ويقضون الحاجات ، وكانوا
 يأبون إلا أن يتبعوا رؤسائهم وأحبارهم في حياتهم الخلقية والمدنية ،
 ويستمدوا منهم بدلاً من الله تعالى شرعهم وقانون حياتهم . وهذا هو
 الذي أفضى بهم في آخر الأمر إلى أن يصبحوا أمة مفسدة ، فأخذهم
 من الله عذاب أليم وبين كل ذلك ما يأتي من آيات القرآن الحكيم .

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ
 وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا
 تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا
 أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ .) (حم : السجدة ١٣ - ١٤)

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
 إِلَهٍ غَيْرُهُ .) (هود : ٦١)

(قالوا يا صالحُ قد كنتَ فينا مرجوًّا قبلَ هذا أتهانا
أن نعبُدُ ما يعبدُ آبائنا .)

(إذ قالَ لهمُ أخوهمُ صالحٌ ألا تَتَّقونَ . إني لكم رسولٌ
أمينٌ . فاتَّقوا اللهَ وأطيعونِ .) (الشعراء : ١٥١ - ١٥٤)

(ولا تُطِيعوا أمرَ المسرفينَ الذينَ يفسِدونَ في الأرضِ
ولا يصلِحونَ .) (الشعراء : ١٥١ - ١٥٢)

قوم إبراهيم ونمرود

وبنو نمرود قوم إبراهيم عليه السلام . ولما يجعل أمر هذه الأمة
أخطر وأجدر بالبحث ، أن قد شاع خطأ بين الناس عن ملكهم
نمرود ، أنه كان بكفر بالله تعالى ويدعي الألوهية . والحق أنه كان
يؤمن بوجود الله تعالى ويعتقد بأنه خالق هذا العالم ومدير أمره ،
ولم يكن يدعي الربوبية إلا بالمعنى الثالث والرابع والخامس . وكذلك
قد شاع بين الناس خطأ أن قوم إبراهيم عليه السلام هؤلاء ما كانوا
يعرفون الله ولا يؤمنون بألوهيته وربوبيته . وإنما الواقع أن
أمر هؤلاء القوم لم يكن يختلف في شيء عن أمر قوم نوح
وعاد ونمرود . فقد كانوا يؤمنون بالله ويعرفون أنه هو الرب وخالق

الأرض والسموات ومدر أمر هذا العالم ، وما كانوا يستنكفون عن عبادته كذلك . وأما غيبتهم وضلالهم فهو أنهم كانوا يعتقدون أن الاحرام الفلكية شريكة مع الله في الربوبية بالمعنى الأول والثاني ولذلك كانوا يشركونها بالله تعالى في الألوهية . وأما الربوبية بالمعنى الثالث والرابع والخامس فكانوا قد جعلوها خاصة للموكلهم وجباريتهم . وقد جاءت نصوص القرآن في ذلك من الوضوح والجلال بحيث يتعجب المرء : كيف لم يدرك الناس هذه الحقيقة وقصروا عن فهمها ؟ . وهيا بنا ننظر قبل كل شيء في الحادث الذي حدث لإبراهيم - عليه السلام - عند أول ما بلغ الرشد ، والذي يصف فيه القرآن كيفية سعي إبراهيم وراء الوصول إلى الحق :

(فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربي ، فلما أفل ، قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً ، قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدي ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربي . هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين .) (الأنعام : ٧٦-٧٩)

فيبين واضحاً من الآيات المخطوطة تحتها أن المجتمع الذي نشأ فيه إبراهيم عليه السلام ، كان يوجد عنده تصور فاطر السماوات والأرض وتصور كونه رباً منفصلاً عن تصور ربوبية السيَّارات السماوية . ولا عجب في ذلك ، فقد كان القوم من ذرية المسلمين الذين كانوا قد آمنوا بنوح عليه السلام ، وكان الدين الإسلامي لم يزل يحيا ويوجد فيهم دائماً في الغرب والقراية من أمم عاد وثمود ، على أيدي الرسل الكرام الذين تولوا عليها كما قال عز وجل : (جاءهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم) . فعلى ذلك كان إبراهيم عليه السلام أخذ تصور كون الله رباً وفاعلاً للسماوات والأرض عن يثته التي نشأ فيها . وأما التساؤل الذي كان يخالج نفسه فهو عن مبلغ الحق والصحة فيما شاع بين قومه من تصور كون الشمس والقمر والسيَّارات الأخرى شريكة مع الله في نظام الربوبية حتى اشركوها بالله تعالى في العبادة (١) . فجدد إبراهيم عليه السلام

(١) لعله مما يجعل ذكره في هذا المقام أن الآثار التي قد اكتشف عنها عقب ما جرى من الحفر والتنقيب في الخرائب عن مدينة (اور) موطن إبراهيم عليه السلام . تدل على أن القوم هناك كانوا يعبدون إله القمر الذي كانوا يسمونه (منر) بلقهم . وفي ما جاورها من البلاد التي كانت قاعدتها (رسة) كان القوم يعبدون إله الشمس الذي يسمونه (تراس) . وكان مؤسس الأسرة الحاكمة في ذلك القطر ملكاً اسمه (أرفو) الذي تعرب في بلاد العرب فأصبح (نروذ) وعلى ذلك تفرر (نروذ) لقباً لذلك في تلك الديار .

في البحث عن جوابه قبل أن يصطفيه الله تعالى للنبوة ، حتى أصبح نظام طلوع السمات السماوية وأفولها هادياً له إلى الحق الواقع وهو أنه لا رب إلا فاطر السموات والأرض . ولا أجل ذلك تراه يقول عند قول القمر : **لئن لم يهدني ربي لأخافن أن أبقى عاجزاً عن الوصول إلى الحق واتخذع بهذه المظاهر التي لا يزال يتخذع بها ملايين من الناس من حولي . ثم لما اصطفاه الله تعالى لمنصب النبوة أخذ في دعوة قومه إلى الله ، فإنك ترى بالتأمل في الكلمات التي كان يعرض بها دعوته على قومه أن ما قلناه آنفاً يزداد وضوحاً وتبيناً :**

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ

بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا . (الأنعام - ٨١)

(وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .) (مريم - ٤٨)

(قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ .)

(الأنبياء - ٥٦)

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ .)

(الأنبياء - ٦٦)

(إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أفكراً آلهة دون الله
 تريدون . فما ظنكم برب العالمين .) (الصافات : ٨٥ - ٨٧)
 (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كافرينا بكم
 وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله
 وحده .) (الممتحنة : ٤)

فيتجلى من جميع الأقوال لإبراهيم عليه السلام أنه ما كان يخاطب
 بها قوماً لا يعرفون الله تعالى ويحجدون بكونه إله الناس ورب العالمين
 أو أذهانهم خالية من كل ذلك ، بل كان بين يديه قوم يشركون
 بالله تعالى آلهة أخرى في الربوبية بمعناها الأول والثاني وفي الألوهية .
 ولذلك لا ترى في القرآن الكريم قولاً واحداً لإبراهيم عليه السلام قد
 قصد به إقناع أمته بوجود الله تعالى وبكونه إلهاً ورباً للعالمين ، بل
 الذي تراه يدعو أمته إليه في كل ما يقول هو أن الله سبحانه وتعالى هو
 وحده الرب والإله .

ثم لفتعرض أمر عمرو . فالذي جرى بينه وبين إبراهيم عليه
 السلام من الحوار ، قصة القرآن في ما يأتي من الآيات :

(ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي
وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ
فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .)

(البقرة - ٢٥٨)

أنه ليتضح جلياً من هذا الحوار بين النبي وبين نمرود أنه لم يكن
النزاع بينهما في وجود الله تعالى أو عدمه وإنما كان في أنه من ذا يعتقد
إبراهيم عليه السلام رياً ؟ كان نمرود من أمة كانت تؤمن بوجود الله
تعالى ، ثم لم يكن مصاباً بالجنون واختلال العقل حتى يقول هذا القول
السخيف البين الحق : « إني فاطر السماوات والأرض ومدير سير
الشمس والقمر . » فالحق أنه لم تكن دعواه أنه هو الله ورب السماوات
والأرض وإنما كانت أنه رب المملكة التي كان إبراهيم - عليه السلام -
أحد أفراد رعيته . ثم أنه لم يكن يدعي الربوبية لتلك المملكة بمعناها
الأول والثاني ، فإنه كان يعتقد بربوبية الشمس والقمر وسائر السيارات
هذين المعنيين ، بل كان يدعي الربوبية لمملكته بالمعنى الثالث والرابع
والخامس . وبعبارة أخرى كانت دعواه أنه مالك تلك المملكة ، وأن
جميع أهاليها عبيد له ، وأن سلطته المركزية أساس لاجتماعهم ، وأمره
قانون حياتهم . وتدل كلمات (أن آناه الله الملك) دلالة صريحة

على أن دعواه الربوبية كان أساسها التبعج بالملكبة . فلما بلغه أن
قد ظهر بين رعيته رجل يقال له إبراهيم ، لا يقول ربوبية الشمس
والقمر ولا السيارات الأخرى في دائرة مافوق الطبيعة ، ولا هو
يؤمن بربوبية صاحب العرش في دائرة السياسة والمدنية ، استغرب
الأمر جدا فدعا إبراهيم عليه السلام فسأله : من ذا الذي تعتقده رباً ؟
فقال إبراهيم عليه السلام بادي ، ذي بسد : « ربي الذي يحيي
ويميت يقدر على إمامة الناس وإحيائهم ! » فلم يدرك نمرود
غور الأمر فحاول أن يبرهن على ربوبيته بقوله : « وأنا أيضاً
أملك الموت والحياة ، فأقتل من أشاء وأحقن دم من أريد ! ... »
هناك بين له إبراهيم عليه السلام أنه لا رب عنده إلا الله الذي لا رب
سواه بجميع معاني الكلمة ، وأنه لا يكون لأحد غيره شرك في الربوبية
وهو لا سلطان له على الشمس في طلوعها وغروبها ؟ ! وكانت نمرود
رجلاً فظلاً ، فما أن سمع من إبراهيم عليه السلام هذا الدليل القاطع
حتى تجلت له الحقيقة ، وتفطن لأن دعواه الربوبية في ملكوت
الله تعالى بين السماوات والأرض إن هي إلا زعم باطل وادعاء فارغ
فيه ولم ينس بيت شفة . إلا أنه قد كان بلغ منه حب الذات واتباع
هوى النفس وإشمار مصالح العشرة ، مبلغاً لم يسمح له بأن ينزل عن
ملكيته المستبدة ويثوب إلى طاعة الله ورسوله ، مع أنه قد تبين له الحق
والرشد . فعلى ذلك قد أعقب الله تعالى هذا الحوار بين النبي ونمرود
بقوله : (والله لا يهدي القوم الظالمين) والمراد أن نمرود لما لم يرض أن

بتخذ الطريق الذي كان ينبغي أنه أن يتخذه بعدما تبين أنه الحق ، بل
آثر أن يظلم الخلق ويظلم نفسه معهم ، بالاصرار على ملكيته المستبد
الفاشمة لم يؤته الله تعالى نوراً من هدايته ، ولم يكن من سنة الله أن
يهدي إلى سبيل الرشده من كان لا يطلب الهداية من تلقاء نفسه .

قوم لوط عليه السلام :

ويعقب قوم إبراهيم في القرآآت قوم لوط ، الذين بعث لهم هدايتهم
وإصلاح فسادهم لوط بن أخي إبراهيم عليها السلام . — ويدلنا القرآن
الكريم أن هؤلاء أيضاً ما كانوا متذكرين لوجود الله تعالى ولا كانوا
يحجدون بأنه هو الخالق والرب بالمعنى الأول والثاني . أما الذي
كانوا بأبونه ولا يقبلونه فهو الاعتقاد بأن الله هو الرب بالمعنى
الثالث والرابع والخامس ، والاذعان لسلطة النبي من حيث كونه
نائباً من عند الله أميناً . ذلك بأنهم كانوا يستغفون أن يكونوا
أحراراً مطلقين الحرية يفعلون ما يشاؤون من أهوائهم ورغباتهم وتلك
كانت جرمتهم الكبيرة التي ذاقوا من جزائها أليم العذاب . ويؤيد
ذلك ما يأتي من النصوص القرآنية :

(إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول)

أَمِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
 إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنْ
 الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلَى
 أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ . (الشعراء : ١٦٦ - ١٦٧)

وبديهي أن مثل هذا القول لم يكن ليخاطب به إلا
 قوم لا يحسدون بوجود الله تعالى وبكونه خالقاً ورباً لهذا
 العالم ؟ فأنت ترى أنهم لا يحبون لوطاً عليه السلام بقول من مثل :
 « ما الله ؟ » من أين له أن يكون خالقاً للعالم ؟ « أو « أنى له أن
 يكون ربنا ورب الخلق أجمعين ؟ » بل تراهم يقولون :

(لَسْنَا نَمُنُّ بِآلِ لُوطٍ) لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(الشعراء : ١٦٧)

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الحديث في موضع آخر بالكلمات
 الآتية :

(وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ
 بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَأْتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطَعُونَ
 السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمَذْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ)

إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

(العنكبوت : ٢٨ - ٢٩)

أوضح — فوز أن يكون هذا جواب قوم ينكرون وجود الله تعالى ؟
لا والله ومن ذلك يتبين أن جبريتهم الحقيقية لم تكن إنكار الوهية الله
تعالى وربوبيته ، بل كانت جبريتهم أنهم على إيمانهم بالله تعالى إلهاً ورباً
فيما فرق العالم الطبيعي ، كانوا يأتون أن يطيعوه ويتبعوا قانونه في شؤونهم
الخلقية والمدنية والاجتماعية ، يمتنعون من أن يتعدوا بهدي نبيه لوط
عليه السلام .

قوم شعيب عليه السلام

ونذكر في الكتاب بعد ذلك أهل مدين وأصحاب الأيكة الذين بعث
إليهم شعيب عليه السلام . ومما نعرف عن أمرهم أنهم كانوا من ذرية
إبراهيم عليه السلام ، إذن لا حاجة إلى أن نبحث فيهم : هل كانوا يؤمنون
بوجود الله تعالى وبكونه إلهاً ورباً أم لا ؟ إنهم كانوا في حقيقة الأمر أمة
نشأت على الإسلام في بدابة أمرها ، ثم أخذت بالفساد بما أصاب عقائدها
من الانحلال وأعمالها من سوء . ويبدو مما جاء عنهم في القرآن كأن
القوم كانوا بعد ذلك كله يدعون لأنفسهم الإيعان ، فإنك ترى شعيباً
عليه السلام يكرر لهم القول : يا قوم اعملوا كذا وكذا إن كنتم مؤمنين
وفي خطاب شعيب عليه السلام لقومه واجوبة القوم له دلالة واضحة على

أنهم كانوا قوماً يؤمنون بالله ويبرؤنه منزلة الرب والمعبود ، ولكنهم كانوا قد تورطوا في نوعين من الضلال : أحدهما أنهم كانوا أصبحوا يعتقدون الألوهية والربوبية في آلهة أخرى مع الله تعالى ، فلم تعد عبادتهم خالصة لوجه الله ، والآثر أنهم كانوا يعتقدون أن ربوبية الله لا تدخل لها في شؤون الحياة الإنسانية من الاخلاق والاجتماع والاقتصاد والمدنية والسياسة ، وعلى ذلك كانوا يرحمون أنهم مطلقوا العنان في حياتهم المدنية ولهم أن يتصرفوا في شؤونهم كيف يشاءون ، وبصدق ذلك ما يأتي من الآيات :

(وإلى مدین أخاهم شعبياً ، قال یا قوم اعبدوا الله ما لكم من الله غیره قد جاءکم بینة من ربکم فأوفوا الکیل والمیزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فی الأرض بعد إصلاحها ذلکم خیر لکم إن كنتم مؤمنین .)

(الأعراف : ٨٥)

(وإن کان طائفة منکم آمنوا بالذی أرسلت به وطائفة لم یؤمنوا فاصبروا حتی یمکن الله بیننا وھو خیر الحاکمین .)

(الأعراف : ٨٧)

(وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْسُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . بَقِيَّةُ
اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ .
قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَافُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

(هود : ٨٥ - ٨٧)

والعبارات الأخيرة المخلوطة تحتها خصوصية الدلالة على ضلالهم
الحقيقي في باب الربوبية والألوهية .

فرعون وآله

وهذا بنا ننظر الآن في قصة فرعون وآله ، ممن قد شاع عنهم في الناس
من الأخطاء والأكاذيب أكثر مما شاع فيهم عن نمرود وقومه . فالظن
الشائع أن فرعون لم يكن منكر الموجد الله تعالى فحسب ، بل كان يدعي
الألوهية لنفسه أيضاً . ومعناه أن قد بلغت منه السفاهة أنه كان يجاهر
على رؤوس الناس بدعوى أنه فاطر السماوات والأرض ، وكانت أمته من
البله والحمالة أنها كانت تؤمن بدعواه تلك . والحق الواقع الذي يشهد به
القرآن والتاريخ هو أن فرعون لم يكن يختلف ضلاله في باب

الألوهية والربوبية عن ضلال عمرو ، ولا كان يختلف ضلال آله
عن ضلال قوم عمرو . وإنما الفرق بين هؤلاء وأولئك أنه قد كان
نشأ في آل فرعون ليمض الأسباب السياسية عناد وتعصب وطني
شديد على بني إسرائيل ، فكانوا لجرد هذا العناد يعتنقون من الإيمان
بألوهية الله وربوبيته ، وإن كانت قلوبهم تعترف بها شأن أكثر
الملحدين الماديين في عصرنا هذا .

وبيان هذا الإجمال أنه لما استقوت ليوسف عليه السلام السلطة
على مصر ، استفرغ جهم —هـ في نصر الإسلام وتعاليمه بينهم .
ورسم على أرضه من ذلك أثراً محكماً لم يقدر على محوه أحد إلى
القرون . وأهل مصر وإن لم يكونوا إذ ذاك قد آمنوا بدين الله
عن بكرة أبيهم ، إلا أنه لا يمكن أن يكون قد بقي فيهم من
لم يعرف وجود الله تعالى ولم يعلم أنه هو فاطر السموات
والأرض . وليس الأمر يقف عند هذا بل الحق أن كان
تم للتعاليم الإسلامية من النفوذ والتأثير في كل مصري ما جعله ، على
الأقل — يعتقد بأن الله إله الآلهة ورب الأرباب فيها فوق العالم الطبيعي
ولم يبق في تلك الأرض من يكفر بألوهية الله تعالى . وأما الذين
كانوا قد أقاموا على الكفر ، فكانوا يجادلون مع الله شركاء في
الألوهية والربوبية . وكانت تأثيرات الإسلام المختلفة هذه في نفوس

أهل مصر باقية إلى الزمن الذي بعث فيه موسى عليه السلام . (١)
والدلائل على ذلك تلك الخطبة التي ألقاها أمير من الأقباط في
مجلس فرعون . وذلك أن فرعون حينما أبدى إرادته في قتل
موسى عليه السلام ، لم يصير عليه هذا الأمير القبطي من
أمراء مجلسه ، وكان قد أسلم وأخفى إسلامه ، ولم يلبث أن
قام يخطب :

(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ

(١) وإذا ما وثقنا بما بينت التوراة من الحوادث التاريخية
فإننا نستطيع أن نقدر أن قريبا من خمس عدد سكان مصر ، قد كانوا
أسلموا حينذاك . فإن ما جاء في التوراة من إحصاء بني إسرائيل يدل
على أن الذين خرجوا منهم مع موسى عليه السلام كانوا مليوني
نفر . ولا تظن أن يكون عدد سكان مصر في ذلك الزمن أكثر من
عشرة ملايين . هذا وقد وصفت التوراة أولئك المهاجرين كلهم بكونهم
بني إسرائيل . ولكن لا يبدو من الممكن - ربما بالغنا في الحدس والتخمين -
أن يكون ولد أبدا . يعقوب عليه السلام الاثنى عشر قد بلغت بهم الكثرة
والوفرة عدد مليونين في مدة خمثة سنة . لذلك مما يقتضيه القياس أنه
لا بد أن يكون عدد غير قليل من أهالي مصر قد أسلموا وانضموا إلى
بني إسرائيل ثم رافقوهم في هجرتهم عن أرض مصر . ومن ذلك كله نستطيع
أن نقدر مدى عمل الدعوة الذي قام به يوسف عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه
في القطر المصري .

رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ
بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
كَذَّابٌ . يَأْقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ
فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا .)

(يَأْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ . مِثْلَ
دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ .)
(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي
شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ
اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) . . . (وَيَأْقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى
النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لَأُكْفِرَ بِاللَّهِ
وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى
الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ .) (غافر - ٢٨ - ٣١ - ٣٤ - ٤١ - ٤٢)

وتشهد هذه الخطبة من أولها إلى آخرها بأنه لم يزل أثر شخصية
النبي يوسف عليه السلام باقياً في نفوس القوم إلى ذلك الحين ، وقد

مضت على عهده قرون متعددة . وبفضل ما علمهم هذا النبي الجليل ،
لم يكونوا قد بلغوا من الجهالة ألا يعلم شيئاً عن وجود الله تعالى ،
أو ألا يعرفوا أنه الرب والاله ، وأن سيطرته وسادته عالية على
قوى الطبيعة في هذا العالم ، وأن غضبه لما يخاف ويتقى . ويتضح
أيضاً من آخر هذه الخطبة أن أمة فرعون لم تكن تتجحد بالوهمية
الله وربوبيته جحوداً بانياً ، وإنما كانت ضالها كضلال الأمم
الأخرى مما ذكرناه آنفاً . أي كانت هذه الأمة أيضاً تنكر بالله
تعالى في صفتي الألوهية والربوبية وتحمل له فيها أنداداً .

نما مثار الشبهة في أمر فرعون فهو سؤاله لموسى عليه السلام
(وما رب العالمين) حينما سمع منه : (إنا رسول رب العالمين !) ثم
قوله لصاحبه هامان : (ابن لي صرحاً لعلني أبلغ الأسباب أسباب السموات
فأطلع إلى إله موسى) ووعيده لموسى عليه السلام : (ائمن اتخذت إلهاً
غيري لأجعلنك من المسجونين) ، وإعلانه لقومه : (أنا ربكم الأعلى)
وقوله لله : (لا أعلم لكم من إله غيري) . فمثل هذه الكلمات التي
قالها فرعون قد خيلت إلى الناس أنه كان ينكر وجود الله تعالى
وكان فارغ الذهن من تصور رب العالمين ، ويزعم لنفسه أنه الإله
الواحد ، ولكن الواقع الحق أنه لم يكن يدعي ذلك كله إلا بدافع من
العصية الوطنية . وذلك أنه لم يكن الأمر في زمن النبي يوسف عليه
السلام قد وقف على أن شاعت تعاليم الاسلام في ربوع مصر

بفضل شخصيته القوية الجليلة ، بل جاوز ذلك إلى أن تمكن بني
 إسرائيل نفوذ بالغ في أرض مصر تبعاً لما تنبأ ليوسف عليه السلام
 من السلطة والكرامة النافذة في حكومة مصر ، فبقيت سلطة بني
 إسرائيل مهيمنة على القطر المصري إلى ثلاثمائة سنة أو أربعمائة .
 ثم أخذ يخالج صدور المصريين من الوظائف الوطنية والقومية
 ما جعلهم يتعصبون على بني إسرائيل ، واشتد الأمر حتى ألغوا سلطة
 الأسرائيليين ونفوذهم إلغاء . فتولى الأمر بعدهم الأسر المصرية
 الوطنية وتتابعت في الحكم . وهؤلاء الملوك الجدد لما امسكوا زمام
 الأمر لم يقتصرُوا على إخضاع بني إسرائيل وكسر شوكتهم ، بل
 تمددوا إلى أن حاولوا محو كل أثر من آثار العهد اليوسفي في مصر
 وإحياء تقاليد ديانتهم الجاهلية . فلما بعث إليهم في تلك الآونة موسى
 عليه السلام ، خافوا على غلبتهم وسلطتهم أن تنتقل من أيديهم إلى
 أيدي بني إسرائيل مرة أخرى . فلم يكن يبعث فرعون إلا هذا
 العناد والاحتجاج على أن يسأل موسى عليه السلام ما خطأ متبرماً : وما رب
 العالمين ؟ ومن يمكن أن يكون إلهاً غيري ؟ وهو في الحقيقة لم يكن
 جاهلاً وجود رب العالمين . وتوضح هذه الحقيقة كما أوضح ما يكون
 مما جاء في القرآن الكريم من أحاديثه وأحاديث ملأه وخطب
 موسى عليه السلام . فيقول فرعون - مثلاً - نأكيداً لقوله إن موسى
 عليه السلام ليس برسول الله .

(فلولوا أَلْفِي عَلَيْهِ أُسُورَةُ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ
الملائكة مُقْتَرِنِينَ .) (الزخرف : ٥٣)

أفكان لرجل فارغ الذهن من وجود الله تعالى والملائكة أن
يقول هذا القول وفي موضع آخر يقص القرآن الحوار الآتي بين
فرعون وبين النبي موسى عليه السلام :

(فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا . قَالَ
لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَشْبُورًا .)
(بني إسرائيل : ١٠١ - ١٠٢)

وفي محل آخر يظهر الله تعالى مافي صدور قوم فرعون بقوله :
فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .
وَجَحَدُوا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًا .)

(النمل : ١٣ - ١٤)

ويصور لنا القرآن نادياً آخر جمع موسى عليه السلام وآل
فرعون بهذه الآية :

(قَالِ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

فَسَحَّجْتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى . فَمَتَّازِعُوا أَمْرَهُمْ
 بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ
 أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ
 الْمُثُلَى . (طه : ٦١ - ٦٣)

والظاهر أنه لم يكن قلم النزاع ونشأ الأخذ والرد بينهم وبين
 نبيهم موسى عليه السلام حين أنذروهم عذاب الله ونبههم على سوء
 حال ما كانوا يفكرون ، إلا لأنهم قد كان في قلوبهم ولا شك بقية
 من أثر عظمة الله تعالى وجلاله وهيبته ولكن حكمهم الوطنيين لما
 أنذروهم بخطر الانقلاب السيامي العظيم ، وحذروهم ، قبة اتباعهم لموسى
 وهارون ، وهي عودة غلبة الاسرائيليين على أبناء مصر ، قست
 قلوبهم وانفقوا جميعاً على مقاومة النبيين .

وبعد ما قد تبين لنا من هذه الحقيقة ، من السهل علينا أن نبحث :
 ماذا كانت مشار النزاع بين موسى عليه السلام وفرعون ،
 وماذا كانت حقيقة ضلاله وضلال قومه ، وبأي معاني كلمة (الرب)
 كان فرعون يدعي لنفسه الألوهية والربوبية . فتعال نتأمل لهذا
 الغرض ما يأتي من الآيات بالتدريج .

١ - إن الذين كانوا يلحون من ملأ فرعون على حسم دعوة

موسى عليه الصلاة والسلام واستنصها من أرض مصر ، يخاطبون
فرعون لبعض المناسبات ويسألونه :

(أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَآلِهَتَكَ.) (الأعراف : ١٢٧)

وبخلاف ذلك يناديهم الذي كان قد آمن بموسى عليه السلام :
(تَدْعُونِي لَأُكْفِرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ .)
(المؤمن : ٤٢)

فإذا نظرنا في هاتين الآيتين وأضفنا إليها ما قد زودنا به التاريخ
وآثار الأمم القديمة أخيراً من المعلومات عن أهالي مصر زمن
فرعون ، يتجلى لنا أن كلا من فرعون وآله كانوا يشركون
بالله تعالى في المعنى الأول والثاني لكلمة (الرب) ويجعلون معه شركاء
من الأصنام ويعبدونها ، والظاهر أن فرعون لو كان يدعي لنفسه
الربوبية فيما فوق العالم الطبيعي ، أي لو كان يدعي أنه هو الغالب
المتصرف في نظام الأسباب في هذا العالم ، وأنه لا إله ولا رب
غيره في السماوات والأرض ، لم يعبد الآلهة الأخرى أبداً (١)

(١) إن بعض المفسرين قد آثروا قراءة (الهتك) في هذه الآية
وجعلوا (إلهة) بمعنى العبادة ، فذهبوا إلى أن فرعون كانت دعواه أنه
هو رب العالمين وناطق السماوات والأرض ، فيكون معنى الآية على حسب -

(٢) أما سكّات فرعون هذه التي قد وردت في القرآن :

(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي .)

(القصص : ٣٨)

(وَلَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَّاهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ .)

(الشعراء : ٢٩)

فليس المراد بذلك أن فرعون كان ينفي جميع ما سواه من الآلهة . وإنما كان غرضه الحقيقي من ذلك رد دعوة موسى عليه السلام وإبطالها . ولما كان موسى عليه السلام — يدعو إلى إله لا تنحصر ربوبيته في دائرة ما فوق الطبيعة فحسب ،

- فرامتهم أنترك موسى وقومه ايدعوك ويدعوا عادتك . إلا أن هناك أموراً لابد من ملاحظتها . أولاً أن قراءتهم تلك شاذة تخالف القراءة الشائعة المعروفة ، والثاني أن الفرض الذي قد آثر المفسرون لأجله تلك القراءة الشاذة لا تقوم على أساس . والثالث أنه قد يتكون من معاني كلمة (آلهة) : العبودة أو الضم الأنثى علاوة على معنى العبادة . ومن المعلوم أنه كان إله أهل مصر الأكبر على العموم هو الشمس ، وكانوا يعبدون عنها باللغة المصرية بكلمة (رع) . وكان معنى (فرعون) خلف (رع) . أو مظهر (رع) . وعلى هذا كان كل ما يدعي فرعون في الحقيقة هو أنه المظهر المادي لإله الشمس الأكبر ، وكأني .

— (تعليق على الحاشية السابقة) —

قراءة (الالهة) — بكسر الهمزة — ذكر الطبري في تفسيره ٤١/١ - ٤٢ ، و ١٧/٩ أنها مروية عن ابن عباس وعبد الله ، واستشهد بها الطبري فقال : « والقراءة التي لا تسمى القراءة بغيرها هي القراءة التي عابها الامصار (أي : آهلك) لاجماع الحجة من القراء عليها » اهـ وقد روى الطبري تفسير هذه القراءة عن ابن عباس نفسه من وجوه ١٨/٩ فقال : « . . . ويدرك والالهة : قال : وعبادتك » ويقول : كان يعبد ولا يعبد » ، وروى عنه تفسيرها من وجه آخر بمعنى « يترك عبادتك » . وهذا الوجه يمكن حمله على أن موسى عليه السلام يترك عبادة فرعون ، بمعنى أنه لا يثق له ، ولا يدع لأمره .

وما ارتأه الأستاذ المودودي — حفظه الله — من أن هذه القراءة تختمل أن تكون بمعنى (الالهة) مؤنث (إله) رواء الطبري أيضاً — وإن كان عاد فاستضافه — فقال : « وزعم بعضهم أن من قرأ (والالهة) إنما يقصد إلى نحو معنى قراءة (وآهلك) غير أنه أنت وهو يريد إلهاً واحداً » .

وما يقوي هذا الوجه — على استضاف الطبري له — أن المصيرين — كما قال الأستاذ المودودي — كانوا يؤلهسون الشمس : وقد وردت كلمة (الالهة) في العربية بمعنى (الشمس) ذكر ذلك الطبري نفسه —

بل هو كذلك مالك الأمر والتهيء ودوا القوة والسلطة القاهرة بالمعاني السياسية والمدنية ، قال فرعون لقومه : يا قوم لا أعلم لكم مثل ذلك الآلة غيري ، وتهدد موسى عليه السلام ، أنه إن اتخذ من دونه إلهاً يلقىته في السجن .

ومما يعلم كذلك من هذه الآيات ، وتأييده شواهد التاريخ وآثار الأمم القديمة ، أن فرعوناً معسماً يكونوا يدعون لأنفسهم مجرد الحاكمية المطلقة ، بل كانوا يدعون كذلك نوعاً من القداسة

- في التفسير ١٨/٩ ، وناق على ذلك شاعداً قول بنت عتبة بن الحارث اليربوعي : تروحننا من العباء عصرأ واعجبنا الإلاعة أن تؤولأ قال : « يعني بالإلاعة في هذا الموضع الشمس »

وكذلك ذكرت كتب اللغة من معاني (الإلاعة) الأصنام والمخلال والشمس : وانظر (اللسان المحيط) و (لسان العرب) في منسادة (إله) و (المخصص ١٩/٩) . وروى الطبرسي في (مجمع البيان) (٤٦/٤) عن ابن جني أنه قال « حيث الشمس الإلاعة والإلاعة لأنهم كانوا يعبدونهم » .

وهذا كله مما يدعم رأي الأستاذ المودودي - حفظه الله - وينصر قوله .

والنزاع بانتسابهم إلى الآلهة والأصنام ، حرصاً منهم على أن يتغلغل نفوذهم في نفوس الرعية ويستحكم استيلاؤهم على أرواحهم . ولم تكن الفراعنة منفردة بهذا الادعاء ، بل حتى أن الأسر الملكية مازالت في أكثر أقطار العالم تحاول الشراكة - قليلاً أو كثيراً - في الألوهية والربوبية في دائرة ما فوق الطبيعة ، علاوة على ما كانت تتولاه من الحاكمية السياسية ، وما زالت لأجل ذلك تفرض على الرعية أن تقوم بين يديها بشيء من شعائر العبودية ، على أن دعواهم تلك للألوهية السابوقة تكون هي المقصودة بذاتها في الحقيقة ، وإنما كانوا يتذرعون بها إلى تأييد حاكميتهم السياسية . ومن ذلك نرى أنه مازالت الأسر الملكية في مصر وغيرها من الأقطار الجاهلية تذهب ألوهيتها بذهب سلطانها السياسي ، وقد بقيت الألوهية تتبع العرش في تنقله من أيدي إلى أخرى .

(٣) ولم تكن دعوى فرعون الأصلية بالألوهية الغالبة المتصرفة في نظام السنن الطبيعية ، بل بالألوهية السياسية ! فكان يزعم أنه الرب الأعلى لأرض مصر ومن فيها بالمعنى الثالث والرابع والخامس الكلمة (الرب) ويقول إني أنا مالك القطر المصري وما فيه من الثنى والثروة وأنا الحقيق بالحاكمية المطلقة فيه ، وشخصيتي المركزية هي الأساس لمدينة مصر واجتماعها ، وإذن لايجوز فيها إلا شريعتي وقانوني . وكان أساس دعوى فرعون بعبارة القرآن :

(وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ
مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ .)
(الزخرف - ٥١)

وهذا الأساس نفسه هو الذي كانت تقوم عليه دعوى تروود للربوبية .

و (حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك .)

(البقرة : ٢٥٨)

وهو كذلك الأساس الذي رفع عليه فرعون الماصر ليوسف عليه
السلام بنيان ربوبيته على أهل مملكته .

(٤) أما دعوة موسى عليه السلام التي كانت سبب النزاع بينه وبين
فرعون وآله ، فهي في الحقيقة أنه لا إله ولا ربٌ بجميع معاني كلمة (الرب)
إلا الله رب العالمين ، وهو وحده الإله والرب في فوق العالم الطبيعي ،
كما أنه هو الإله والرب بالمعاني السياسية والاجتماعية ، لأجل ذلك
يجب ألا نخلص العبادة لإلهه ، ولا تتبع في شؤون الحياة
المختلفة إلا شرعه وقانونه ، وأنه - أي موسى عليه السلام - قد بعثه
الله تعالى بالآيات البينات وسينزل الله تعالى أمره ونهيه إمارة بما يوحى
إليه ، لذلك يجب أن تكون أزمة أمور عباده بيده ، لا بيد فرعون . ومن

هنا كان فرعون ورؤساء حكومته 'يعلون أصواتهم المرة بعد المرة بأن موسى وهارون - عليهما السلام - قد جاءا يسلباننا أرض مصر. وأرادا أن يذهبا بنظمنا الدينية والمدنية ليستبدلا بها ما يشاءان من النظم والقواعد.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمُلْكِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ .)

(هود : ٩٦ - ٩٧)

(وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنْ لِيَ أَتَيْكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (الدخان : ١٧ - ١٩)

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيًّا .)

(المزمل مل : ١٥ - ١٦)

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .)

(طه : ٤٩ - ٥٠)

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مَوْقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا
 تَسْمَعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ
 الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
 وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي
 لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ) (الشعراء : ٢٣ - ٢٩)

(قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّهُ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى)
 (طه : ٥٧)

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ .)
 (غافر : ٢٦)

(قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاخِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ

أَرْضَكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى

(طه - ٦٣)

وبانعام النظر في هذه الآيات بالتدريج الذي قد سردناها به ، يتجلى أن الضلال الذي تعاقبت فيه الأمم المختلفة من أقدم العصور ، كان هو عينه قد غشت وادي النيل ظلماته ، وأن الدعوة التي قام بها جميع الأنبياء منذ الأبد ، كانت هي نفسها يدنو بها موسى وهارون عليهما السلام .

اليهود والنصارى

وتطلع علينا بعد آل فرعون بنو إسرائيل والأمم الأخرى التي دانت باليهودية والنصرانية . وهؤلاء لا مجال للظن فيهم أن يكونوا منكرين لوجود إله العالم ، أو يكونوا لا يعتقدون بالوحيته وربوبيته فإن القرآن نفسه يشهد بكونهم أهل الكتاب ، وأما السؤال الذي ينشأ في ذهن الباحث عن أمرهم فهو أنه ما هو على التحديد الخطأ في عقيدتهم ومنهج عملهم في باب الربوبية - الذي قد عدم القرآن من أجله من القوم الضالين ؟ والجواب المجمل على السؤال تجده في القرآن نفسه في آيته الكريمة :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ

وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا

كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ .) (المائدة - ٧٧)

فيعلم من هذه الآية أن ضلال اليهود والنصارى هو من حيث الأصل
والأساس نفس الضلال الذي ارتطمت فيه الأمم المتقدمة ، وتدانا هذه
الآية أيضاً أن ضلالهم هذا كان آتياً من غلوهم في الدين ، وها نحن نرى
بعد ذلك كيف يفصل القرآن هذا الاجمال :

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ
ابْنُ اللَّهِ) (التوبة : ٣٠)

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ .
وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)
(المائدة - ٧٢)

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ
إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ) . (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت
للنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ
سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ)

(المائدة : ٧٣ ، ١١٦)

(ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم

يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
 كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ
 تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ
 أَرْبَاباً ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

(آل عمران : ٧٩ - ٨٠)

فكان ضلال أهل الكتاب حسب ما تدل عليه هذه الآيات : أولاً أنهم
 بالغوا في تعظيم النفوس المقدسة كالأنبياء والأولياء والملائكة التي تستحق
 التكريم والتعظيم لمساكنتها الدينية ، فرفعوها من مكانتها الحقيقية إلى
 مقام الألوهية وجعلوها شركاء مع الله ودخلاء في تدبير أمر هذا العالم ،
 ثم عبدوها واستغاثوا بها واعتقدوا أن لها نصيباً في الألوهية
 والربوبية المهيمنتين على ما فوق العالم الطبيعي ، وزعموا أنها تملك لهم
 المغفرة والإعانة والحفظ . وثانياً أنهم :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ .)

(التوبة - ٣١)

أي أن الذين لم تكن وظائفهم في الدين سوى أن يعلموا الناس
 أحكام الشريعة الإلهية ، ويزكواهم حسب مرضاة الله ، تدرج بهم هؤلاء
 حتى أنزلوهم بحيث يحلون لهم ما يشاؤون ويحرمون عليهم ما يشاؤون ،

ويأمرهم وينهونهم حسب ما نشاء أهواؤهم بدون سند من كتاب الله ، ويسنون لهم من السنن ما نشئهم أنفسهم . كذلك وقع هؤلاء في نفس النوعين من الضلال الأساسي الخطير اللذين قد وقع فيها قبلهم أمم نوح وإبراهيم وعاد وثمود وأهل مدين وغيرهم من الأمم ، فاشركوا بالله الملائكة وعباده المقربين - كما أشرك أولئك - في الربوبية المهيمنة على ما فوق العالم الطبيعي ، وجعلوا الربوبية بتعانيها السياسية والمدنية - كما جعل أولئك - للإنسان بدلاً من الله رب السماوات . وراحوا يستمدون مبادئ المدنية والاجتماع والأخلاق والسياسة وأحكامها جميعاً من بني آدم ، مستغنيين في ذلك عن السلطان المنزل من عند الله تعالى . وأفضى بهم النبي إلى أن قال فيهم القرآن :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَتَوَا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبْتِ
وَالطَّاغُوتِ .) (النساء : ٥٩)

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ
لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ
وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ . أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ
السَّبِيلِ .) (المائدة : ٦٠)

(الجبَّتْ) كلمة جامعة شاملة لجميع أنواع الأوهام والخرافات من

السحر والتائم والشعوذة والتكهن واستكشاف الغيب والتشاوم
والتفائل والتأثيرات الخارجة عن القوانين الطبيعية ، والمراد من
(الغاغوت) كل فرد أو طائفة أو إدارة تبغي وتسرّد على الله ، وتجاوز
حدود العبودية وتدعي لنفسها الألوهية والربوبية . فلما وقعت اليهود
والنصارى في ما تقدم ذكره من النوعين من الضلال ، كانت نتيجة أولهما
أن أخذت جميع أنواع الأوهام مأخذها من قلوبهم وعقولهم ، وأما الثاني
فاستدرجهم من عبادة العلماء والمشايع والصوفية والزهاد إلى عبادة
الجبارة وطاعة الظالمين الذين كانوا قد بغوا على الله علانية !

المشركون العرب

هذا وانبحث الآن في المشركين العرب الذين بحث فيهم خاتم
النبيين ﷺ ، والذين كانوا أول من خاطبهم القرآن : من
أي نوع كانت ضلالهم في باب الألوهية والربوبية ، هل كانوا
يجهلون الله رب العالمين ، أو كانوا ينكرون وجوده ،
فبعت إليهم النبي ﷺ ليت في قلوبهم الإعانة بوجود الذات
الإلهية ! وهل كانوا لا يعقدون الله عز وجل إلهاً للعالمين
ورباً ، فأنزل الله القرآن ليقنعهم بألوهيته وربوبيته ؟ وهل كانوا
يأبون عبادة الله والخضوع له ؟ أو كانوا لا يعقدونه سميع الدعاء
وقاضي الحاجة ؟ وهل كانوا يزعمون أن اللات والعزى ومناة
وهبل والآلهة الأخرى هي في الحقيقة فاطرة هذا الكون وما يمكنه

والرافقة فيه والقائمة على تدبيره وإدارته ؟ أو كانوا يؤمنون بأن
آلهتهم تلك مرجع القانون ومصدر الهداية والإرشاد في شؤون
المدنية والأخلاق ؟

كل واحد من هذه الأسئلة إذا راجعنا فيه القرآن فإنه يحيب
عليه بالنفي ؟ ويبين لنا أن المشركين العرب لم يكونوا قائلين بوجود
الله تعالى فحسب ، بل كانوا يعتقدونه مع ذلك خالق هذا العالم كله
— حتى آلهتهم — ومالكه وربّه الأعلى ، وكانوا يدعون له بالألوهية
والربوبية . وكانت الله هو الجناح الأعلى الأرفع الذي كانوا يدعونه
ويستهلون إليه في مآل الأمر عندما يتسبب الضرر أو تصيبهم المصائب ،
ثم كانوا لا يقتنعون عن عبادته والخضوع له ، ولم تكن عقيدتهم في
آلهتهم وأصنامهم أنها قد خلقتهم وخلق هذا الكون ، وترزقهم
جميعاً ، ولا أنها تهديهم وترشدهم في شؤون حياتهم الخلقية والمدنية ،
فالآيات الآتية تشهد بما نقول :

(قُلْ لِمَنُ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ
لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ
وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .
قُلْ مَن يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ

عليه إن كنتم تعادون . سيقولون لله ، قل فأنسى تسحرون ،
 بل أتيناكم بالحق وإنهم لكاذبون . (المؤمنون : ٨٤ - ٩٠)
 (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في
 الفلك وجريئ بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح
 عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط
 بهم دعوا الله مخلصين له الدين لكن أنجيتنا من هذه لنكونن
 من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير
 الحق .) (يونس : ٢٢ - ٢٣)

(وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه
 فلما أنجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً .)
 (الإسراء : ٦٧)

ويروي القرآن عقائدهم في آلهتهم بعبادتهم فيما يأتي :
 (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدكم إلا ليقربونا
 إلى الله زلفى .) (الزمر : ٣)

(وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ .) (يونس : ١٨)

ثم إنهم لم يكونوا يزعمون لآلهتهم شيئاً من مثل أنها تهديهم في شؤون حياتهم ، فإله تعالى يأمر رسوله ﷺ في سورة يونس (قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق) الآية : ٣٥ فيرميهم سؤاله هذا بالسكات ، ولا يجيب أحد منهم عليه بنعم : إن اللات والعزى ومناة والآلهة الأخرى تهدينا سواء السبيل في العقيدة والعمل ، وتعلمنا مبادئ العدالة والأمن والسلام في حياتنا الدنيا ، وإننا نستمد من منبع علمها معرفة حقائق الكون الأساسية ، فعند ذلك يقول الله عز وجل لنبيه ﷺ :

(قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ . أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُدْعَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .)

(يونس : ٣٥)

ويبقى بعد هذه النصوص القرآنية أن نطلب جواب هذا السؤال : ماذا كان ضلالهم الحقيقي في باب الربوبية الذي بعث الله نبيه ﷺ نرده إلى الصواب ، وأنزل كتابه المجيد ليخرجهم من ظلماته إلى نور الهداية ؟ وإذا تأملنا القرآن لتحقيق في هذه المسألة ، نقف في عقائدهم وأعمالهم كذلك على النوعين من الضلال اللذين مازالا يلازمان الأمم الضالة منذ القدم .

فكانوا بجانب يشركون بالله آلهة وأرباباً من دونه في الألوهية

والربوبية فيها فوق عالم الطبيعة ، ويستقدون بأن الملائكة والنفوس
 الإنسانية المقدسة والسيارات السماوية - كل أولئك ذخيرة بوحه
 من الوجوه في صلاحيات الحكم القائم فوق نظام العلل والأسباب .
 ولذلك لم يكونوا يرجعون إلى الله تعالى وحده في الدعاء والاستعانة
 وأداء شعائر العبودية ، بل كانوا يرجعون كذلك في تلك الأمور
 كلها إلى آلهتهم المصنوعة الملققة . وكانوا بجانب آخر يكادون
 لا يتصورون في باب الربوبية المدنية والسياسية أن الله تعالى هو الرب
 بهذه المعاني أيضاً . فكانوا قد اتخذوا أئمتهم الدينيين ورؤسائهم
 وكبراء عشائرهم أرباباً بتلك المعاني ، ومنهم كانوا يتلقون الفوائت لحياتهم .
 أما التسرع الأول من ضلالهم فيشهد به القرآن فيما
 يلي من الآيات :

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ
 اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . يَدْعُو مِن دُونِ
 اللَّهِ مَالًا يَضُرُّهُ وَمَالًا يَنْفَعُهُ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ
 يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَشَرٍ مَوْتٍ وَلِإِنشِ
 الْعَشِيرُ .) (الحج : ١١ - ١٣)

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ
وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَتَشَاءُونَ أَنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ^(١) ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
عَمَّا يُشْرِكُونَ .) (يونس : ١٨)

(قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ
وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا .) (حم السجدة : ٩)

(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا
نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .) (المائدة : ٧٦)

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضَرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا

(١) أي إنكم أيها القوم تترحمون أن لا الهلاك من الأثر والنفوذ
لدي ما يجعل كل شفاعتهم إلي مقبولة عندي ، ولذلك تعبدونها وتندرون لها ،
ولكني لا أعلم أحداً في السماوات ولا في الأرض يكون له عندي من القوة
والحول أو يكون من حي إليه ما يجبرني على قبول شفاعته . أفأنتم تعرفونني
من الشفاء ما لا أعلمه .

ومن البديهي أن كون الشيء ليس في علم الله معناه أنه لا وجود
له البتة .

خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ
لِلَّهِ أَنْدَاداً^(١) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ . (الزمر : ٨)

(وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه
تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم
بريهم يشركون . ليكفروا بما آتيناكم فتمتعوا فسوف
تعلمون . ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً^(٢) مما رزقناهم ،
تالله لتسألن عما كنتم تفترون .) (النحل : ٥٣-٥٦)

وأما الآخر فشهادة القرآن ما يأتي :

(و كذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم
ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم .) (الأنعام : ١٣٧)

(١) وجمال لله أنداداً ، أي يمود فيقول : إن هذا الضر
قد كشفه عني ذلك الشيخ المقدس ، وذلك النعمة قد نلتها بفضل ذلك
الول المقرب !

(٢) أي إن الذين لم يتحقق عند هؤلاء بأي طريقة العلم
أنهم هم الذين قد كفروا عنهم الشر ويسروا لهم العسر ، يتصدقون لهم
ويوفون لهم السدور شاكرين لهم ، ومن أعجب الأمور أنهم ينفقون في
ذلك مما رزقناهم نحن ..

ومن الظاهر أنه ليس المراد به (شركاء) في هذه الآية : الآلهة والأصنام ، بل المراد بهم أولئك القادة والزعماء الذين زينوا للعرب قتل أولادهم وجعلوه في أعينهم مكرمة . فأدخلوا تلك البدعة الشنعاء على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وظاهر كذلك أن أولئك الزعماء لم يكن القوم قد اتخذوهم شركاء من حيث كانوا يعتقدون أن لهم السلطان فوق نظام الأسباب في هذا العالم ، أو كانوا يعبثونهم ويدعونهم ، بل كانوا قد جعلوهم شركاء مع الله في الألوهية والربوبية من حيث كانوا يسمون بحقهم في أن يشرعوا لهم ما يشاؤون من النظام والقوانين شؤونهم المدنية والاجتماعية ، وأمورهم الخلقية والدينية .

(أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله .)

(الشورى : ٢١)

وسياتي تفصيل معاني كلمة (الدين) في موضعه من هذه الرسالة ، وهناك سنتبين سعة معاني هذه الآية وشمولها . على أنه يتضح في هذا المقام أن ما كان يتولاها أولئك الزعماء والروؤساء من وضع الحدود والقواعد التي هي بمثابة الدين بغير إذن من الله تعالى ، وأن اعتقاد العرب بكونها مما يجب اتباعه والعمل به ، كان هو عينه شركة مع الله من أولئك في ألوهيته وربوبيته ، وإيماناً من هؤلاء بشركتهم تلك :

دعوة القرآن :

أن هذا البحث الذي قد خضنا غماره في الصفحات السابقة بصدد تصورات الأمم الضالة وعقائدها ، يكشف القناع عن حقيقة أن جميع الأمم التي قد وصمها القرآن بالظلم والضلال وفساد العقيدة من لدن أمم القصور في القدم إلى زمن نزول القرآن ، لم تكن منها واحدة بوجود الله تعالى ولا كانت تنكر كون الله رباً وإلهاً بالاطلاق . بل كان ضلالها الأصلي المشترك بين جميعها أنها كانت قد قسمت المعاني الخصة لكلمة (الرب) التي قد حددناها في بداية هذا الباب — مستشهدين باللغة والقرآن — قسمين متباينين :

فأما المعاني التي تدل على أن (الرب) هو الكفيل بتربية الخلق وتمهده وفضاء حاجته وحفظه ورعايته بالطرق الخارجية عن النظام الطبيعي ، فكانت لها عندهم دلالة أخرى مختلفة ، وهم وإن كانوا لا يمتقدون إلا الله تعالى ربهم الأعلى بوجوبها ، إلا أنهم كانوا يشركون به في الربوبية الملائكة والجن والقوى الغيبية والنجوم والحيارات والأنبياء والأولياء والأئمة الروحانيين .

وأما المعنى الذي يدل على أن (الرب) هو مالك الأمر والنهي وصاحب السلطة العليا ، ومصدر الهداية والإرشاد ، ومرجع القانون

والتشريع ، وحاكم الدولة والمملكة وقطب الاجتماع والمدينة ، فكانت
 له عندكم دلالة أخرى متباينة : وبموجب هذا المفهوم كانوا إما يعتقدون
 أن النفوس الانسانية وحدهم رباً من دون الله ، وإما يستسلمون لربوبية
 تلك النفوس في شؤون الأخلاق والمدينة والسياسة مع كونهم
 يؤمنون إيماناً نظرياً بأن الله هو الرب ، هذا هو الضلال الذي
 مازالت تبعث لحسمه الرسل عليهم السلام من لدن فجر التاريخ ،
 ولأجل ذلك بعث الله أخيراً محمداً ﷺ . وكانت دعوتهم جميعاً
 أن الرب بجميع معاني الكلمة واحد ليس غير ، وهو الله
 تقدست أسماؤه . والربوبية ما كانت لتقبل التجزئة ولم يكن جزء
 من أجزائها ليرجع إلى أحد من دون الله بوجه من الوجوه ، وأن نظام
 هذا الكون مرتبط بأصله ومركزه ، ثيق الارتباط ، قد خلفه الله
 الواحد الأحد ، وبحكمه الفرد الصمد ، وعلمك كل السلطة والصلاحيات
 فيه الاله الغدّ الموحّد ! فلا يد لأحد غير الله في خلق هذا النظام ولا
 شريك مع الله في إدارته وتديره ولا قسيم له في ملكوته . وبما أن الله
 تعالى هو مالك السلطة المركزية ، فإنه هو وحده ربكم في دائرة ما فوق
 الطبيعة ، وربكم في شؤون المدينة والسياسة والأخلاق ، ومعبودكم
 ووجه ركوعكم وسجودكم ، ومرجع دعائكم وعماد توكلكم ، والمتكفل
 بقضاء حاجاتكم ، وكذلك هو الملك ، وما لك الملك ، وهو الشارع
 والمقنن ، وهو الأمر والنهي . وكل هاتين الدلتان الربوبية اللتين

قد فصلتم إحداهما عن الأخرى لجاهليتكم ، هي في حقيقة الأمر قوام
الالهية وعمادها وخاصة إلهية الاله . لذلك لا يمكن فصل إحداها
عن الأخرى ، كما لا يجوز أن يشرك مع الله أحد من خلقه
باعتبار أيهما . وأما الأسلوب الذي يدعو به القرآن دعوته هذه
فها هو ذا بعبارة :

(إِنْ رَبُّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يُطَلِّبُهُ
حِثًّا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .)

(الأعراف : ٥٤)

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَمْ مَنْ يَمْلِكُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ،
فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فذليكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد
الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) (يونس : ٣١ - ٣٢)

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى
النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسَمًّى) ... (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
 الْمُلْكُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ .) (الزمر : ٥٠ - ٦٠)
 (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)
 (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى
 تُؤْفَكُونَ) .. (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ
 بِنَاءً وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمْ
 اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .) (غافر : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥)

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ) ... (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
 وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
 لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ
 لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ .) (فاطر : ١١ و ١٣ - ١٤)

(وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لُهُ قَآتُونَ) ...
(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ
كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ . بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) ...
(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ
عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .) (الرُّومُ : ٢٦ و ٢٨ - ٢٩ ، ٣٠)

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ .) (الرُّومُ : ٦٧)

(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ
الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .)
(الْجَاثِيَةُ : ٣٦ - ٣٧)

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ
لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا .) (مَرْيَمُ : ٦٥)

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) (هود : ١٢٣)

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)
(المزل : ٩)

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَيْنَا رَاغِبُونَ .)
(الانبياء : ٩٢ - ٩٣)

(اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ .) (الأعراف : ٣)

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .) (آل عمران : ٦٤)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ .)
(الناس : ١ - ٣)

فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ
بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا . (الكهف : ١١٠)

فبقراءة هذه الآيات بالترتيب الذي سيدنا عا به ، يتبين للقارىء
أن القرآن يحمل (الربوبية) مترادفة مع الحاكمية والملكية
(Sovereignty) ويصف لنا (الرب) بأنه الحاكم المطلق لهذا
الكون وماله وأمره الوحيد لاشريك له .

وهذا الاعتبار هو ربنا ورب العالم بأجمعه ومربنا
وقاضي حاجتنا .

وهذا الاعتبار هو كفلنا وحافظنا ووكيلنا .
وطاعته بهذا الاعتبار هي الأساس القطري الصحيح الذي يقوم
عليه ببناء حياتنا الاجتماعية على الوجه الصحيح المرضي ، والصلة
بشخصيته المركزية تسلك شتى الأفراد والجماعات في نظام الأمة .
وهذا الاعتبار هو حري بأن نعبدته نحن وجميع خلائفه ، ونطيعه
ونقت له .

وهذا الاعتبار هو مالكننا ومالك كل شيء وسيدنا وحاكمنا .
لقد كان العرب والشعوب الجاهلية في كل زمان أخطأوا — ولا
زالون يخطئون إلى هذا اليوم — بأنهم وزعوا هذا المفهوم الجامع
الشامل للربوبية على خمسة أنواع من الربوبية ، ثم ذهب بهم الفان

والوهم أن تلك الأنواع المختلفة الربوبية قد ترجع إلى ذوات مختلفة ونفوس شتى ، بل ذهبوا إلى أنها راجعة إليها بالفعل ، فجاء القرآن فأنبت باستدلالة القوي المقنع أنه لا مجال أبداً في هذا النظام المركزي لأن يكون أمر من أمور الربوبية راجعاً — في قليل أو كثير — إلى غير من بيده السلطة العليا ، وأن مركزية هذا النظام نفسها هي الدليل البين على أن جميع أنواع الربوبية مختصة بالله الواحد الأحد الذي أعطى هذا النظام خلقه .

ولذلك فإن من يظن جزءاً من أجزاء الربوبية راجعاً إلى أحد من دون الله ، أو يرجعه إليه ، بأي وجه من الوجوه ، وهو يعيش في هذا النظام ، فإنه يحارب الحقيقة ويصدف عن الواقع ويعني على الحق ، وبقي بيده إلى التهلكة والخسران بما يتعب نفسه في مقاومة الحق الواقع .

٣- العبادة

التحقيق اللغوي :

المعبودة والمعبودية والعبدية ؛ معناها اللغوي^(١) : الخضوع والتذلل ،
أي استسلام المرء وانقياده لأحد غيره انقياداً لا مقاومة معه ولا عدول
عنه ولا عصيان له ، حتى يستخدمه هو حسب ما يرضى وكيف ما يشاء .

(١) قال ابن فارس في (معاني اللغة) ٢٠٥/٥ في مادة (عبد) :
« العبد والهاء أصلان صحيحان ، كأنهما متضادان ، والأول
من ذينك الأصلين يدل على لين وذل ، والآخر على شدة وغلظ » . اهـ
وقال ابن سيده في (المختصر) ٩٦/١٣ :

« أصل العبادة في اللغة : التذلل ، ... والعبادة والخضوع والتذلل
والاستكانة فرأى في المعاني ، ... وكل خضوع ليس موقف خضوع فهو
عبادة ، طاعة كان المعبود أو غير طاعة ، وكل طاعة لله على جهة الخضوع
والتذلل فهي عبادة والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى
أجناس النعم كالحياسة والفهم والسمع والبصر ، والشكر والعبادة لا تستحق
إلا بالنعمة ، لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه إلا من
كان له أعلى جنس من النعمة إلا الله سبحانه فلذلك لا يستحق العبادة إلا
الله . » . اهـ

وعلى ذلك تقول العرب : (يعير معبّد) للبعير السلس المنقاد .
و (طريق معبّد) للطريق المهد الوطء . ومن هذا الأصل اللغوي
نشأت في مادة هذه الكلمة معاني العبودية والاطاعة والتأله والخدمة
والقيّد والمنع . فقد جاء في لسان العرب تحت مادة (ع ب د) ما نلخصه
فيما يلي (١) :

(١) (العَبْدُ) المملوك خلاف الحر : (تعبّد الرجل) :
اتخذ عبداً أي مملوكاً أو عامله معاملة العبد ، وكذلك (عبّد الرجل
وأعبّدته واعتبّدته) وقد جاء في الحديث الشريف : ثلاثة أنا
خصمهم : رجل اعتبد محرراً — وفي رواية أعبّد محرراً — أي
اتخذ رجلاً محرراً عبداً له ومملوكاً : وفي القرآن أن موسى عليه السلام
قال لفرعون : وتلك نعمةٌ تمنّيناُ عليّ أن عبّدت بني إسرائيل)
أي اتخذتهم عبيداً لك .

(٢) (العبادة) الطاعة مع الخضوع : ويقال (عبّد الطاغوت)
أي أطاعه ؛ (إياك نعبد) أي نطيع الطاعة التي يخضع معها ؛
و (اعبدوا ربّكم) أي أطيعوا ربّكم ؛ و (قومها لنا عابدون)
أي دائنون وكل من دان لملك فهو عابده ؛ وقال ابن الأثيري :
(فلان عابد) وهو الخاضع لربه المستسلم المتقادر لأمره .

(١) انظر (لسان العرب) ٢٥٩/٤ - ٢٦٩

(٣) (عِبَادَةُ عِبَادَةٍ وَمَعْبُدًا وَمَعْبُودَةً) تَأْتِي لَهُ .
و (التَّعْبُدُ) : التَّنَسُّكُ . هُوَ (الْمَعْبُدُ) الْمُكْرَمُ الْمُعْظَمُ : كَأَنَّهُ
يُعْبَدُ . قَالَ الشَّاعِرُ :

أَرَى الْمَالَ عِنْدَ الْبَاحِلِينَ مَعْبُدًا

(٤) (وَعَبْدَ بِهِ) : لُزْمَهُ فَلَمْ يَفَارِقْهُ .

(٥) (مَا عَبَدَكَ عَنِي) أَيِ مَا حَبَسَكَ .

وَيَتَضَحُّ مِنْ هَذَا الشَّرْحِ اللَّافُوزِ لِمَادَةِ (ع ب د) أَنَّ مَفْهُومَهَا
الْأَسَاسِي أَنَّ بَدْعَ الْمَرْءِ لِعِبَادَةِ أَحَدٍ وَغَايَتَهُ ، ثُمَّ يَنْزِلُ لَهُ عَنْ حُرِّيَّتِهِ
وَاسْتِقْلَالِهِ وَيَتْرَكُ إِزَاجَهُ كُلَّ الْمَقَاوِمَةِ وَالْعَصِيَانِ وَيَتَقَادُ لَهُ انْقِيَادًا .
وَهَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْعِبْدِيَّةِ وَالْعِبُودِيَّةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَشْتَلُ فِي
ذَهْنِ الْعَرَبِيِّ لِحُجْرَةِ سَمَاعِهِ كَلِمَةُ (الْعَبْدُ) وَ (الْعِبَادَةُ) هُوَ نَصُورُ
الْعِبْدِيَّةِ وَالْعِبُودِيَّةِ . وَبِمَا أَنَّ وَظِيفَةَ الْعَبْدِ الْحَقِيقِيَّةِ هِيَ إِطَاعَةُ سَيِّدِهِ
وَاِمْتِثَالُ أَوْامِرِهِ ، فَحَقًّا يَتَّبِعُهُ نَصُورُ الْإِطَاعَةِ . ثُمَّ إِذَا كَانَ الْعَبْدُ
لَمْ يَقِفْ بِهِ الْأَمْرَ عَلَى أَنَّ يَكُونَ قَدْ أَسْلَمَ نَفْسَهُ لِسَيِّدِهِ طَاعَةً وَتَذَلُّلاً ،
بَلْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ يَمْتَقِدُ بِمَالَاتِهِ وَيَمْتَرِفُ بِمُلُوكَاتِهِ وَكَانَ قَلْبُهُ مَقْعًا بِعَوَاطِفِ
الشُّكْرِ وَالْإِمْتِنَانِ عَلَى نِعَمِهِ وَأَيَادِيهِ ، فَإِنَّهُ يَبَالِغُ فِي تَعْجِيدِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَيَتَفَنَّنُ
فِي إِبْدَاءِ الشُّكْرِ عَلَى آلَاتِهِ وَفِي أَدَاءِ شَمَائِرِ الْعِبْدِيَّةِ لَهُ ، وَكُلُّ ذَلِكَ اسْمُهُ
النَّالَةُ وَالتَّنَسُّكُ . وَهَذَا النَّصُورُ لَا يَنْضَمُّ إِلَى مَعَانِي الْعِبْدِيَّةِ إِلَّا إِذَا كَانَ
الْعَبْدُ لَا يَخْضَعُ لِسَيِّدِهِ رَأْسَهُ فَحَسْبُ ، بَلْ يَخْضَعُ مَعَهُ قَلْبُهُ أَيْضًا . وَأَمَّا
الْمُفْهَرِّمَانِ الْبَاقِيَانِ فَانْهِيَ تَصَوُّرَانِ فَرْعِيَانِ لَا أَصْلِيَانِ لِلْعِبْدِيَّةِ .

استعمال كلمة العبادة في القرآن

وإذا رجعنا إلى القرآن بعد هذا التحقيق اللغوي رأينا أن كلمة (العبادة) قد وردت فيه غالباً في المعاني الثلاثة الأولى ، وفي بعض المواضع قد أريد بها المعنيان الأول والثاني معاً ، وفي الأخرى المعنى الثاني وحده ، وفي الثالثة المعنى الثالث فحسب ، كما قد استعملت في مواضع أخرى بمعانيها الثلاثة في آن واحد . أمّا أمثلة ورودها بالمعنيين الأول والثاني في القرآن فهي :

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ .
إِلَى فِرْعَوْنَ وَمُلْكِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ . فَقَالُوا
أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ^(١١)) .

(المؤمنون : ٤٥ - ٤٧)

(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عِبَدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ^(١٢)) .
(الشعراء : ٢٢)

(١) قال الإمام الطبري في التفسير ١٨ / ١ : « ... لَنَا عَابِدُونَ :
يؤمنون أنهم هم مطيعون متذللون ياتقرون لأمرهم ويدينون لهم ، والعرب
تسمى كل من دان بملك عابداً له . ا هـ »

(٢) قال الطبري في التفسير ١٩ / ٣٣ : « ... وبمعنى بقوله (عبادت بني إسرائيل)
إن اتخذهم عبيداً لك . ا هـ ، وفيه عن مجاهد « قال : قهرتهم واستعصمهم » وعن
ابن جريج « قال : قهرت وغلبت واستعصمت بني إسرائيل » .

والمراد بالعبادة في كلنا الآيتين هو العبودية والاطاعة ، فقال
 فرعون : ان قوم موسى وهارون عابدون لنا ، أي عبيد لنا وخاضعون
 لأمرنا ، وقال موسى : إنك عبثت بني إسرائيل ، اتخذتهم عبيداً
 واتخذهم حسب ما تشاء وترضى .

العبادة بمعنى العبودية والاطاعة

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
 وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ^(١)) (البقرة ١٧٢)
 ان المناسبة التي أنزلت بها هذه الآية هي أن العرب قبل الاسلام
 كانوا يتقيدون بأنواع من القبود في المأكل والمشرب ، امتثالاً لأوامر
 أئمتهم الدينين واتباعاً لأوهام آبائهم الأولين ، ولما أسلفوا قال الله تعالى :

(١) قال الطبري في التفسير ٢ / ٥٠ : إن كنتم إياه تعبدون : يقول :

إن كنتم متقدين لأمره ، سامعين مطيعين فكلوا مما أباح لكم أكله وحله وطيبه لكم
 ودعوا في تحريمه حظوات الشيطان . . . وهو الذي نسبهم إلى أكله ونهاهم عن
 اعتقاد تحريمه : إذ كان تحريمه إياه في الحادية طاعة منهم للشيطان ، واتباعاً لأهل
 الله من الآباء والأولاد . . .

إن كنتم تعبدوني فعليكم أن تخطوا جميع تلك القيود وتأكلوا ما أحلته لكم هنيئاً مريئاً ، ومعناه أنكم إن لم تكونوا عباداً لأجباركم وأنتمكم ، بل لله تعالى وحده ، وإن كنتم قد هجرتهم طاعتهم إلى طاعته ، فقد وجب عليكم أن تتبعوا ما وضعه لكم من الحدود ، لا ما وضعوه ، في الحلال والحرام . ومن ذلك جاءت كلمة (العبادة) في هذا الموضع أيضاً تعاني العبودية والاطاعة .

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ .) (١١)
(المائدة : ٦٠)

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .)
(النحل : ٣٦)

(١) قال الطبري في تفسيره الطاغوت : بعد أن نزل أن قال بعض أهل التفسير م/١٣ ، : والصواب من القول عندي أنه كل ذي طغوان على الله ، يعبد من دونه ، أما يقهر منه من عبده ، وأما بطاعة من عبده له ، إنما كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء ، وأرى أن أصل الطاغوت : الضغرة من قول القائل : طغأ فلان بظفوه : إذا عدا فخره وتجاوز حده . وانظر تفسير الأستاذ المودودي لطاغوت يتبع من هذا ص ٧٩ من هذا الكتاب .

(وَالَّذِينَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنَابُوا إِلَى

اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى .) (الزمر : ١٧)

المراد بعبادة الطاغوت في كل من هذه الآيات الثلاث هو العبودية
للاطاغوت وإطاعته . ومعنى الطاغوت في اصطلاح القرآن - كما سبق
الإشارة إليه - كل دولة أو سلطة وكل إمامة أو قيادة تبغي على الله وتتعمد ،
ثم تنفذ حكمها في أرضه وتحمل عباده على طاعتها بالإكراه أو بالإغراء أو
بالتعليم الفاسد . فاستسلام المرء لمثل تلك السلطة وتلك الإمامة والزعامة
وتعبئده لها ثم طاعته إياها - كل ذلك منه عبادة - ولا شك - لاطاغوت ؛

العبادة بمعنى الطاعة

وخذ بعد ذلك الآيات التي قد وردت فيها كلمة (العبادة) بمعناها

الثاني فحسب ؛ قال الله تعالى :

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ

لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .) (يس : ٦٠)

الظاهر أنه لا يتأتى أحد للشيطان في هذه الدنيا ، بل كل يلغنه
ويطرده من نفسه ، لذلك فإن الجريمة التي يصم بها الله تعالى بني آدم

يوم القيامة ليست تألمهم للشيطان في الحياة الدنيا ، بل إطاعتهم لأمره
واتباعهم لحكمه وتسرعهم إلى السبيل التي أراهم إيها .

(احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون .
من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) ... (وأقبل
بعضهم على بعض يتسائلون . قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن
اليمن . قالوا بل لم تكونوا مؤمنين . وما كان لنا عليكم
من سلطان بل كنتم قوماً طائغين .)

(الصافات : ٢٢ - ٢٣ ، ٢٧ - ٣٠)

ويتضح بانعام النظر في هذه الحادثة التي حكاهها القرآن بين العابدین
وبين ما كانوا يعبدون ، أن ليس المراد بالمعبودين في هذا المقام الآلهة
والأصنام التي كان يتأله لها القوم ، بل المراد أولئك الائمة والهداة الذين
أضلوا الخلق متظاهرين بالنصح ، وتمثلوا للناس في لبوس القديسين المظهرين ،
فخدعواهم بسبعاتهم وجيئاتهم وجعلوهم تبعاً لهم ، والذين أشاعوا فيهم الخسر
والفساد باسم النصح والإصلاح . فالقليد الأعمى لأولئك الخداعين
والاتباع لا يحكامهم هو الذي قد عبر الله عنه بكلمة العبادة في هذه الآية .
(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن

مرئيم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً) (التوبة : ٣١)
والمراد بالتخاذ العلماء والأخبار أرباباً من دون الله ثم عبادتهم في هذه
الآية هو الاعتان بكونهم مالكى الأمر والنهى ، والاطاعة لأحكامهم
بدون منند من عند الله أو الرسول ، وقد صرح بهذا المعنى رسول الله
ﷺ نفسه في الأحاديث الصحيحة ، فلهذا قيل له : انما لم نعبد علماءنا
وأخبارنا ، قال : ألم تحلوا ما أحلوه وتحرموا ما حرموه ؟

العبارة بمعنى الثالث

وانظر بعد ذلك في الآيات التى قد وردت فيها كلمة (العباداة)
بمعناها الثالث . وليكن منك على ذكرى فى هذا المقام أن العبادة بمعنى
الثالثه تشتمل على أمرين اثنين حسبما يدل عليه القرآن :

أولهما : أن يؤدى المرء لأحد من الشعائر كالسجود والركوع
والقيام والطواف وتقبيل عتبة الباب والنذر والنك ، ما يؤدى به عادة
بقصد الثالثه والثانى ، ولا عبرة بأن يكون المرء يعتقد إلهاً أعلى
مستعلاً بذاته ، أو يأتى بكل ذلك إياه وسيلة للشفاعة والرفى إليه أو
مؤمناً بكونه شريكاً للإله الأعلى وتابعاً له فى تدبير أمر هذا العالم .

والثانى : أن يظن المرء أحداً مسيطراً على نظام الأسباب فى هذا
العالم ثم يدعو به فى حاجته ويستغنى به فى ضرره وآفته ، ويعوذ به عند
نزول الأهوال ونقص الأنفس والاموال .

فهذان الوجهان من عمل المرء كلاهما داخل في معاني التسأله .
والشاهد بذلك ما يأتي من آيات القرآن :

(قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي .) (غافر : ٦٦)

(وَأَعِزِّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي) .
(فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ)
(مريم : ٤٨ ، ٤٩)

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ
لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دَعْوَتِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ
النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ^(١)) .

(الاحقاف : ٥ - ٦)

ففي كل من هذه الآيات الثلاث قد صرح القرآن نفسه بأن المراد
بالعبادة فيها هو الدعاء والاستغاثة .

(١) أي يقولون اننا لم نأمرهم بأن يعبدونا ، ولم نعلم أنهم كانوا
يعبدوننا .

(بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون .)

(سبأ : ٤١)

والمراد بعبادة الجن والإيمان بهم في هذه الآية ، تفصيلاً الآية
الآتية من سورة الجن :

(وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن .)

(الجن : ٦)

فيتبين منه أن المراد بعبادة الجن هو العياذ بهم والابجواء إليهم في
الأهوال ونقص الأموال والأنفس ، كما أن المراد بالإيمان بهم هو
الاعتقاد بقدرتهم على الاعادة والحفاظة .

(ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم

أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك

ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء^(١) .)

(الفرقان : ١٧ - ١٨)

(٢) قال الطبري في تفسيره ١٤١ / ٨ : « يقول تعالى ذكره :

ويوم نحشر هؤلاء المكذبين بالساعة العابدين الأوثان وما يعبدون من دون

الله من الملائكة والإنس والجن .. » ٥١ .

ويتجلى من بيان هذه الآية أن المقصود بالمعبودين فيها هم الأولياء والأنبياء والصلحاء والمراد بعبادتهم هو الاعتقاد بكونهم أجل وأرفع من خصائص العبدية والظن بكونهم متصفين بصفات الألوهية وقادرين على الأعانة الغيبية وكشف الضرر ، والإغاثة ، ثم القيام بين يديهم بشعائر الشكر والتعظيم مما يكاد يكون نالها وقتونا .

(ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم .)
(سبأ : ٤٠ - ٤١)

والمقصود بعبادة الملائكة (١) في هذه الآية هو التآله والخضوع لها بكلهم وتأييدهم الخيالية ، كما كانت يفعله أهل الجاهلية ، وكان غرضهم من وراء ذلك أن يرضوهم ، فيستعطفوهم ويستعينوا بهم في شؤون حياتهم الدنيا .

(ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله .)
(يونس ١٨)

(١) وهؤلاء الملائكة مدججتها الأمم المشرقة الأخرى آلهة

(Bible) لها .

والذين اتخذوا من دونه أولياء ما عبادهم إلا ليقربونا
إلى الله زلفى . (الزمر : ٣)

والمراد بالعبادة في هذه الآية أيضاً هو التأله ، وقد فصل فيها
أيضاً الغرض الذي كانوا لأجله يعبدونه .

العبادة بمعنى العبودية والطاعة والتأله

ويوضح كل الواضح من جميع ما تقدم من الأمثلة أن كلمة (العبادة)
في القرآن قد استعملت في بعض المواضع بمعنى العبودية والطاعة
وفي الأخرى بمعنى الطاعة وحسب ، وفي الثالثة بمعنى التأله وحده
والآن قبل أن نسوق لك الأمثلة التي قد جاءت فيها كلمة (العبادة)
شاملة لجميع المعاني الثلاثة ، لابد أن تكون على ذكر من بعض
الأمور الأولية .

إن الأمثلة التي قد سردناها آنفاً ، تتضمن جميعاً ذكر عبادة
غير الله ، أما الآيات التي قد وردت فيها كلمة (العبادة) بمعنى
العبودية والطاعة ، فإن المراد بالعبود فيها إما الشيطان ، وإما الأناس
المتردون الذين جعلوا أنفسهم طواغيت ، فحصلوا عباد الله على عبادتهم
وطاعتهم بدلاً من عبادة الله وإطاعته ، أو هم الائمة والرعماء الذين
قادوا الناس إلى ما اخترعوه من سبل الحياة وطرق المعاش جاعلين

كذاب الله وراء ظهرهم . وأما الآيات التي قد وردت فيها (العباد)
 بمعنى التأله ، فإن المعبود فيها عبارة إما عن الأولياء والأتقياء
 والصلحاء الذين اتخذهم الناس آلهة لهم على رغم أنف هدايتهم وتعليمهم ،
 وإما عن الملائكة والجن الذين اتخذوهم أسوء فهمهم شركاء في
 الربوبية المهيمنة على قانون الطبيعة ، أو هو عبارة عن تخاليل القوى
 الخيالية وهياكلها . التي أصبحت وجهة عبادتهم وقبلة صلواتهم بمجرد
 إغراء الشيطان والقرآن الكريم بعد جميع أولئك المعبودين
 باطلاً ويجعل عبادتهم خطأ عظيماً سواء أ تعبدتم الناس أو أطاعوهم أم
 تألهوا لهم ، ويقول إن جميع من طفقتم تعبدوهم عباد الله وعبيده ،
 فلا يستحقون أن يُعبدوا ولا أتمم مكتسبون من عبادتهم غير الخيبة
 والمذلة والخزي ، وأن ما لكم في الحقيقة ومالك جميع ما في السموات
 والأرض هو الله الواحد ، ويسده كل الأمر وجميع السلطات
 والصلاحات ولا أجل ذلك لا يجدر بالعبادة إلا هو وحده .

(إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم فادعوا
 فليستجيبوا^(١) لكم إن كنتم صادقين) . . . (والذين

(١) ليس المراد بالاستجابة هنا المجاهرة بالجواب ، بل المراد

الإجابة العملية إلى الطلب ، كما استغنا الإشارة إليه .

تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُ عَنْكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ
(الاعراف : ١٩٤ ، ١٩٧)

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ،
لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ
مُشْفِقُونَ^(١))
(الأنبياء : ٢٦ - ٢٨)

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً .)
(الزخرف : ١٩)

(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِيبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ .)
(الصافات : ١٥٨)

(لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ
الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ
فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا .)
(النساء : ١٧٢)

(١) المقصود من العباد المكرمين هنا : الملائكة .

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ .)

(الرحمن : ٥ - ٦)

(تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ،

وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .)

(الإسراء : ٤٤)

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٌ قَانُونٌ .)

(الروم : ٢٦)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا .) (هود : ٥٦)

(إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ

عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فَرْدًا .) (مريم : ٩٣ - ٩٥)

(قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ تَوَتَّى الْمُلْكُ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ

الْمُلْكُ مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ

الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .) (آل عمران : ٢٦)

كذلك بعد أن يقيم القرآن البرهان على كون جميع من عيدهم
الناس بوجه من الوجوه عبيداً لله وتاجزين أمامه ، يدعوا جميع الناس
والجن إلى أن يعبدوا الله تعالى وحده بكل معنى من معاني (العبادة)
المختلفة ، فلا تكون العبودية لإله . ولا بطع لإله ، ولا بتأله
المراء لإله ، ولا تكن حبة خردل من أي تلك الأنواع للعبادة
لوجه غير الله !

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ . (النحل : ٣٦)

(والذين اجتنبوا الطَّاغُوتَ أَنِ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ
لَهُمُ الْبُشْرَى .) (الزمر : ١٧)

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ
لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .)

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ...)
(يس : ٦٠ - ٦١)

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا .) (التوبة : ٣١)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا
لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .) (البقرة : ١٧٢)

قد أمر الله تعالى في هذه الآيات أن تختص له العبادة التي هي
عبارة عن العبدية والعبودية والاطاعة والاذعان ، وقرينة ذلك واضحة
في الآيات ، فإن الله تعالى يأمر فيها أن اجتنبوا إطاعة الطاغوت
والشيطان والاحبار والرهبان والآباء والاجداد واتركوا عبديتهم
جميعاً ، وادخلوا في طاعة الله الواحد الاحد وعبدته .

(قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَن أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمرْتُ أَن أَسْلِمَ لربِّ الْعَالَمِينَ .)
(غافر : ٦٦)

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ . إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .)
(غافر : ٦٠)

(ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ
مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ . إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ

سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ . (
 (فاطر : ١٣ - ١٤)

(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا
 نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .) (المائدة : ٧٦)

وقد أمر الله تعالى في هذه الآيات أن يختص له العبادة بمعنى
 التأله . وقربة ذلك أيضاً واضحة في الآية ، وهو أن كلمة (العبادة)
 قد استعملت فيها بمعنى الدعاء . وقد جاء فيما سبق وما لحق من
 الآيات ذكر الآلهة الذين كانوا يشركونهم بالله تعالى في الربوبية المهيمنة
 على ما فوق الطبيعة .

فالآن ليس من الصعب في شيء على ذي عينين أن يتفطن إلى أنه
 حينما ذكرت في القرآن عبادة الله تعالى ولم تكن في الآيات
 السابقة أو اللاحقة مناسبة تحصر كلمة العبادة في معنى بعينه من المعاني
 المختلفة للكلمة ، فإن المراد بها في جميع هذه الأمكنة معانيها الثلاثة :
 العبودية والإطاعة والتأله . فانظر في الآيات التالية مثلاً :

(إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي .) (طه : ١٤)

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ
 فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .) (الأنعام : ١٠٢)
 (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ
 الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي
 يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(يونس : ١٠٤)
 (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ
 أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .) (يوسف : ٤٠)
 (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
 فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ .) (هود : ١٢٣)

(لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
 نَسِيًّا . رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ
 لِعِبَادَتِهِ .) (مريم : ٦٤ ، ٦٥)

فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا
يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا . (الكهف : ١١٠)

فلا داعي لأن تخص كلمة (العبادَة) في هذه الآيات وما شاكلها
بمعنى الثَّالِثَة وحده أو بمعنى العبدية والإطاعة فحسب . بل الحق أن
القرآن في مثل هذه الآيات يعرض دعوته بأكملها . ومن الظاهر
أنه ليست دعوة القرآن إلا أن تكون العبدية والإطاعة والثَّالِثَة ، كل
أولئك خالصاً لوجه الله تعالى . ومن ثم إن حصر معاني كلمة (العبادَة)
في معنى بعينه ، في الحقيقة ، حصر لدعوة القرآن في معان ضيقة .
ومن نتائج هذه المحنونة أن من آمن بدين الله وهو يتصور دعوة
القرآن هذا التصور الضيق المحدود ، فإنه لن يتبع تعاليمه إلا
اتباعاً ناقصاً محدوداً .

٤ - الدين

التعريف اللغوي

تستعمل كلمة الدين ^(١) في كلام العرب بمعان شتى وهي : ^(٢)
(١) القهر والسلطة والحكم والأمر ، والاكرام على الطاعة ،
واستخدام القوة القاهرة (Sovereignty) فوقه ، وجعله عبداً ،
ومطيعاً ، فيقولون (دان الناس) أي قهرهم على الطاعة ، ويقولون
(دنتم فدانوا) أي قهرتهم فأطاعوا . و (دنت القوم) أي أذللتهم
واستعبدتهم ، و (دان الرجل) إذا عز و (دنت الرجل) حملته
على ما يكره . و (دُين فلان) إذا حمل على مكروه . و (دنته)
أي سسته وملكته . و (دِئنة القوم) وائته سياستهم ، ويقولون
الحطية يخاطب أمه :

(١) قال ابن فارس في (معاني اللغة) ٢ / ٣١٩ مادة
(دين) : « الدال والياء والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها ،
وهو جنس من الانقياد والذل . » اهـ

(٢) انظر (لسان العرب) ١٧ / ٢٤ - ٣٠ .

لَقَدْ دَيَّنْتَ أَمْرَ بَيْتِكَ حَتَّى تَرَكْتَهُمْ أَدَقَّ مِنَ الْعَاجِينَ (١)
 وجاء في الحديث النبوي على صاحبه الصلاة والسلام : (الكيس
 من دان نفسه وعمل لما بعد الموت) أي قهر نفسه وذلائها ، ومن ذلك
 يقال (ديان) للغالب القاهر على قطر أو أمة أو قبيلة والحاكم عليها ،
 فيقول الأعشى الحرمازي يخاطب النبي ﷺ :
 يأسيد الناس وديان العرب

وبهذا الاعتبار يقال (مدين) للعبد والمملوك و (المدينة) للأمة .
 فـ (ابن المدينة) معناه ابن الأمة كما يقول الأخطل :
 ربت وربا في حجرها ابن مدينة (٢)

وجاء في التنزيل :

(فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .)

(الواقعة : ٨٦ - ٨٧)

(٣) الإطاعة والعبدية والخدمة والتسخير لأحد والالتزام بأمر
 أحد ، وقبول الذلة والخضوع تحت غلبته وقهره . فيقولون
 (دنهم فدانوا) أي قهرتهم فأطاعوا ، و (دنت الرجل) أي خدمته ،

(١) البيت في اللسان ١٧ / ٢٨ . وأساس البلاغة ١ / ٢٩١

وروايته في ديوان الخطيب : ٦١ « وقد سوت أمر ... »

(٢) البيت في ديوان الأخطل ٥ ، واللسان ١٧ / ٨٨ ،

و ١٨٩ ، و ١٣ / ٣١٣ ، ومقاييس اللغة ١ / ٣٣٤ ، و ٢ / ٣١٩ .

وجاء في الحديث ، قل رسول الله ﷺ (أريد من قريش كلمة
تدين بها العرب) أي تطيعهم وتخضع لهم . بهذا المعنى يقال للقوم
المطيعين (قوم دين) بهذا المعنى نفسه قد وردت كلمة الدين في حديث
الخوارج : (يرقون من الدين مروق السهم من الرمية) (١)

(٣) الشرع والقانون والطريقة والمذهب والملة والمادة والتقليد ،
فيقولون (ما زال ذلك ديني وديدي) أي دأبي وعادتي . ويقال
(دان) إذا اعتاد خيراً أو شراً . وفي الحديث (كانت قريش
ومن دان بدينهم) أي من كان على طريقتهم وعاداتهم ، وفيه (أنه
عليه السلام كان على دين قومه) أي كان يتبع الحدود والقواعد
الرائجة في قومه في شؤون النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من
الشؤون المدنية والاجتماعية .

(٤) الجزاء والمكافأة والقضاء والحساب . فمن أمثال العرب
(كما تدين تدان) أي كما تصنع يصنع بك . وقد روى القرآن قول

(١) ليس معنى الحديث أن الخوارج سيخرجون من الدين بمعنى الملة ، فان
علياً كرم الله وجهه لما سئل عنهم : اكفارهم ؟ قال : من الكفر قروا .
فمثل أفئدة قروهم ؟ قال : المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً ، وأولئك
يذكرون الله صباح مساء ، فيقرر من ذلك أن المراد بالدين في هذا
الحديث هو إطاعة الإمام . وقد درس ابن الأثير بهذا المعنى في كتابه
(النهاية) فقال : أراد بالدين الطاعة ، أي أنهم يخرجون من طاعة
الإمام المفترض للطاعة وينسحبون منها (الجزء الثاني الصفحة ٤١ - ٤٢) .

الكفار (أئنا لمدينون) أي هل نحن مجزيون محاسبون ؟ وفي حديث ابن عمر رضي عنهما قال رسول الله ﷺ (لا تسبوا السلاطين ، فإن كان لابد فقولوا اللهم دنهم كما يدينون) أي أفعل بهم كما يفعلون بنا . ومن هنا تأتي كلمة (الديان) بمعنى القاضي وحاكم المحكمة وسئل أحد الشيوخ عن علي كرم الله وجهه فقال : (انه كان ديان هذه الأمة بعد نبيها) أي كان أكبر قضائها بعده .

استعمال كلمة (الدين) في القرآن :

فيتين بما تقدم أن كلمة (الدين) قائم بنيانها على معان أربعة ، أو بعبارة أخرى هي تمثل في ذهن العربي تصورات أربعة أساسية .

أولها : القهر والغلبة من ذي سلطة عليا .

والثاني : الاطاعة والتعبد والعبدية من قبل خاضع لذي السلطة .

والثالث : الحدود والقوانين والطريقة التي تتبع .

والرابع : المحاسبة والقضاء والجزاء والعقاب .

وكانت العرب تستعمل هذه الكلمة قبل الاسلام بهذا المعنى تارة

أخرى حسب لغاتهم المختلفة ؛ إلا أنهم لما لم تكن تصوراتهم لتلك

الأمور الأربعة واضحة جلية ولا كان لها من السمو والبعد نصيب ،

كان استعمال كلمة (الدين) مشوباً بشوائب اللبس والغموض ، ولذلك

لم يتح لها أن تكون مصطلحاً من مصطلحات نظام فكري متين ،
حتى نزل القرآن فوجد هذه الكلمة ملائمة لأغراضه ؛ فاقبضها
واستعملها لمغازيه الواضحة المتعينة ، واصطلمها مصطلحاً له مخصوصاً .
فانت ترى أن كلمة (الدين) في القرآن تقوم مقام نظام بأكمله ، يتركب
من أجزاء أربعة هي :

١ - الحاكمية والسلطة العليا .

٢ - الاطاعة والاذعان لتلك الحاكمية والسلطة .

٣ - النظام الفكري والعملي المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية .

٤ - المكافأة التي تكافئها السلطة العليا على اتباع ذلك النظام
والإخلاص له أو على التمرد عليه والعصيان له .

ويطلق القرآن كلمة (الدين) على معنيها الأول والثاني تارة ،
وعلى المعنى الثالث أخرى وعلى الرابع ثالثة ، وطوراً يستعمل
كلمة (الدين) ويريد بها ذلك النظام الكامل بأجزائه الأربعة في آن
واحد . ولا يضاح ذلك يجعل بنا النظر فيما يأتي من الآيات الكريمة :

الدين بالمعنيين الاول والثاني :

(الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً
وصورككم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم

اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .
(غافر : ٦٤ - ٦٥)

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أُعْبِدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) . . . (قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ)

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يُعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى) (إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ . أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)
(الزمر : ١١ - ١٢ و ١٧ ، و ٢ - ٣)

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)
(النحل : ٥٢)

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) (آل عمران : ٨٢)

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء .)

(البينة : هـ)

في جميع هذه الآيات قد وردت كلمة (الدين) بمعنى السلطة العليا ، ثم الافتعان لتلك السلطة وقبول إطاعتها وعيدينها . والمراد بإخلاص الدين لله ألا يسلم المرء لأحد من دون الله بالحاكمية والحكم والأمر ، وبإخلاص إطاعته وعيدينه لله تعالى إخلاصاً لا يتعبد بعده لغير الله ولا يطيعه إطاعة مستقلة بذاتها (١)

الدين بالمعنى الثالث :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ

١ - (معناه أن تكون إطاعة المرء لغير الله - أيًا كان هو - تابعة لإطاعة الله تعالى ومنضمة فيما قد رسم لها من الحدود . فإطاعة الولد لوالده وإطاعة المرأة لزوجها ، وإطاعة العبد أو الخادم لسيدته وما شاكلها من الإطاعات ، إن كانت بأمر من الله ومنضمة فيما قد وضع لها من الحدود فانها عين إطاعة الله . وأما إذا كانت خارجة عن تلك الحدود أو مستقلة بذاتها ، فالها الذم والعصيان .

وقل مثل ذلك في الحكومة ، فهي إن كانت مبنية على القانون المنزل من عند الله تعالى واثمة بانفاذ حكم الله في أرضه فإن إطاعتها واجبة أما إذا لم تكن كذلك ، بل كان أساسها القوانين الوضعية ، فإن إطاعتها جرمية :

الذين تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي
يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَأَنْتَ أَقِمْ
وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

(يونس : ١٠٤ - ١٠٥)

(إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ

الدِّينُ الْقَيِّمُ .) (يوسف : ٤٠)

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَائِتُونَ) . . .

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ

أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ

كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا

أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ^(١) لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ

(١) أي أن الفطرة التي قد فطر الله عليها الإنسان هي أن

لا تشرك الله تعالى في خلق الإنسان وإصلاحه الرزق وتولي الربوبية له ،

ولا إله لغيري آدم ولا مالك ولا مطاع حقيقة غير الله تعالى . فالطريق

الصحيح الطبيعي للإنسان أن يخص عبديته لله تعالى وحده ولا يكون

عبدًا لغيره .

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(الروم : ٢٦ و ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠)

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا

تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .) (النور : ٢)

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ

اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ،

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .) (التوبة : ٣٦)

(كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ .)

(يوسف : ٧٦)

(وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ

شُرَكَاءَهُمْ^(١) لِيَرُدُّوهُمْ^(٢) وَلِيَلْبِسُوا^(٣) عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ .)

(الأنعام : ١٣٧)

(١) أي الذين اتخذوهم مع الله شركاء في الإلهية ، والحكماء

والأمر ، والتفريع .

(٢) المراد بلبس الدين عليهم هو أن هؤلاء المشركين الكذابين

يزعمون لهم ذلك الاثم تزويناً يوههم أن فسادهم تلك جزء من الدين الذي

توارثوه فندوا عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ .)

(الشورى : ٢١)

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ .) (الكافرون : ٦)

المراد بـ (الدين) في جميع هذه الآيات هو القانون والحدود والشرع والطريقة والنظام الفكري والعقلي الذي يتقيد به الانسان فان كانت السلطة التي يستند إليها المرء لاتباعه قانوناً من القوانين أو نظاماً من النظم سلطة الله تعالى ، فالمرء لاشك في دين الله عز وجل ، وأما إن كانت تلك السلطة سلطة ملك من الملوك ، فالمرء في دين الملك ، وإن كانت سلطة المشايخ والقسوس فهو في دينهم . وكذلك إن كانت تلك السلطة سلطة العائلة أو العشيرة أو جماهير الأمة ، فالمرء لاجرم في دين هؤلاء . وموجز القول أن من يتخذ المرء مسنده أعلى الأسناد وحكمه منتهى الأحكام ثم يتبع طريقاً بعينه بموجب ذلك . فإنه — لاشك — بدينه يدين .

المبين بالمعنى الرابع :

(إِنَّ مَا تَوْعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ .)

(الذاريات : ٥ - ٦)

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْدينِ . فذلِكَ الَّذِي يَدْعُ
 اليَتِيمَ . وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ .) (الماعون ١ - ٣)
 (وما أدراك ما يومُ الدين . ثم ما أدراك ما يومُ الدين .
 يومَ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لله .)
 (الانفطار : ١٧ - ١٩)
 قد وردت كلمة (الدين) في هذه الآيات بمعنى المحاسبة والقضاء
 والمكافأة .

الدين : المصطلح الجامع الشامل

إلى هذا المقام قد استعمل القرآن كلمة (الدين) فيما يقرب من
 معانيها الرائجة في كلام العرب الأول . ولكننا نرى بعد ذلك أنه
 يستعمل هذه الكلمة مصطلحاً جامعاً شاملاً يريد به نظاماً للحياة
 يدعن فيه المرء السلطة العليا لسكان ما ، ثم يقبل إطاعته واتباعه ويتقيد
 في حياته بمحدوده وقواعده وقوانينه ويرجو في طاعته العزة والترقي
 في الدرجات وحسن الجزاء ، ويخشى في عصيانه الذلة والخزي وسوء
 العقاب . ولعله لا يوجد في لغة من لغات العالم مصطلح يبلغ من الشمول
 والجامعية أن يحيط بكل هذا المفهوم . وقد كادت كلمة (State) تبلغ

قريباً من ذلك المفهوم ولكنها تفنقر إلى مزيد من الاتساع لأجل
إحاطتها بمحدود معاني كلمة (الدين) . وفي الآيات التالية قد استعمل
(الدين) بصفة هذا المصطلح الجامع :

(الأول والثاني) (الرابع) (الثالث)

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَآحِرَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)
(التوبة : ٢٩)

(الدين الحق) في هذه الآية كلمة اصطلاحية قد شرح معانيها
واضع الاصطلاح نفسه عز وجل ، في الجدل الثلاث الأولى ،
وقد أوضحنا بوضع العلامات على متن الآية أنه قد ذكر الله تعالى
فيها جميع معاني كلمة (الدين) الأربعة ، ثم عبر عن مجموعها بكلمة
(الدين الحق) .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتِلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي
أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ .)
(غافر : ٢٦)

وبملاحظة جميع ماورد في القرآن من تفاصيل لقصة موسى عليه السلام وفرعون ، لا يبقى من شك في أن كلمة (الدين) لم ترد في تلك الآيات بمعنى النحلة والديانة فحسب ، أريد بها الدولة ونظام المدنية أيضاً . فكان مما يخشاه فرعون وبطلته ؛ أنه إن نجح موسى عليه السلام في دعوته ، فإن الدولة ستدول وإن نظام الحياة القائم على حاكمية الفراعنة والقوانين والتقاليد الرائجة سيقطع من أصله . ثم إما أن يقوم مقامه نظام آخر على أسس مختلفة جداً ، وإما ألا يقوم بعده أي نظام بل يعم كل المملكة الفوضى والاختلال .

(إن الدين عند الله الاسلام .) آل عمران - ١٩

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ .)

(آل عمران : ٨٥)

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره

على الدين كله ولو كره المشركون .) (التوبة - ٣٣)

(وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .)

(الأنفال : ٣٩)

(إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في

دين الله أفواجاً فسيح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً .

(سورة النصر)

المراد بـ (الدين) في جميع هذه الآيات هو نظام الحياة الكامل الشامل لتواحيها من الاعتقادية والفكرية والخلقية والعمالية .

وقد قال الله تعالى في الآيتين الأولىين إن نظام الحياة الصحيح المرضي عند الله هو النظام المبني على إطاعة الله وعبيده . وأما ما سواه من النظم المبني على إطاعة السلطة المفروضة من دون الله ، فإنه مردود عنده ، ولم يكن بحكم الطبيعة ليكون مرضياً لديه ، ذلك بأن الذي ليس الإنسان إلا مخلوقه ومخلوكه وربيه ، ولا يعيش في ملكوته إلا عيشة الرعية ، لم يكن ليرضى بأن يكون للإنسان الحق في أن يحيا حياته على إطاعة غير سلطة الله وعبيدها ، أو على اتباع أحد من دون الله .

وقال في الآية الثالثة أنه قد أرسل رسوله ﷺ بذلك النظام الحق الصحيح للحياة الانسانية — أي الاسلام — وغاية رسالته أن يظهره على سائر النظم للحياة .

وفي الرابعة قد أمر الله المؤمنين بدين الاسلام أن يقاتلوا من في الأرض ولا يكفوا عن ذلك حتى تمسحي الفتنة ، وبعبارة أخرى حتى يمحي جميع النظم القائمة على أساس البغي على الله ، وحتى يخلص لله تعالى نظام الاطاعة والعبدية كله .

وفي الآية الأخيرة الخامسة قد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ حين
 تم الانقلاب الاسلامي بعد الجهد والكفاح المستمر مدة ثلاث وعشرين
 سنة ، وقام الاسلام بالفعل بجميع أجزائه وتفصيله نظاماً للمقيد والفكر
 والخلق والتعليم والمدنية والاجتماع والسياسة والاقتصاد ، وجمعت
 وفود العرب تتابع من نواحي القطر وتدخل في حظيرة هذا
 النظام ، فاذ ذاك - وقد أدى النبي رسالته التي بعث لأجلها - يقول
 له الله تعالى : إياك أن تظن أن هذا العمل الجليل الذي قد تم على
 يديك من كسبك ومن سميك ، فيدركك العجب به ، وإنما
 المنزه عن النقص والعيب والمفرد بصفة الكمال هو ربك وحده ،
 فسبح بحمده واشكره على توفيقه إياك لأقيام تلك المهمة الخطيرة وأسأله :
 اللهم اغفر لي ما عسى أن يكون قد صدر مني من التقصير والتفريط في
 واجبي خلال الثلاث والعشرين سنة التي قد فئت بخدمتك فيها :

وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِزْيَانِ وَالْحَرَمِ إِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ

ملحق بتفريغ الأحاديث الواردة

في الكتاب^(١)

١ - ص ٣٣ حديث عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -

تخريج الحديث :

رقم (٥٤١٤) طبعة أحمد محمد شاكر وأساهه صحيح ونقطة في موضع آخر من المسند (رقم ٥٦٠٨) : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية وهو على المنبر (والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) قل : يقول الله : (أنا الخبار أنا المتكبر أنا الملك ، أنا المتعال الخ .) وقد أخرجه مسلم (١٢٦ / ٨) من وجه آخر عن ابن عمر ، ولفظه أقرب إلى لفظ الكتاب وهو : « يطوي الله عز وجل السموات يوم

(١) قام بوضع هذا الملحق الأستاذ الشيخ (طاهر الدين الألباني) كبير رجال الحديث في ديار الشام ، وكان شرعنا بوضع هذا التخريج في جداول الصفحات التي وردت فيها الأحاديث ، ثم رأينا أفراد هذا الملحق ، مع الإشارة إلى الموضع الذي ورد فيه الحديث .

القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك ابن الجبارون ؟
أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرض بشماله ، ثم يقول : أنا الملك !
أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » .

ورواه البخاري (١٣ / ٣٣٧ فتح الباري) عن طريق ثالث عن
ابن عمر مختصراً ، ورواه أبو داود (٢ / ٢٧٨) بتامه إلا أنه قال
« بيده الأخرى » بدل « بشماله » وهو الموافق للأحاديث القائلة :
« وكلنا بيده يمين » ولذلك أشار البيهقي - كما نقله الحافظ - إلى أن
هذه اللفظة « بشماله » شاذة ؛ والله أعلم .

٢ - ص ٩٦ ، ورد في باب (التحقيق القوي) - وهو مختصر
عما ورد في (لسان العرب) .

« وقد جاء في الحديث الشريف : ثلاثة أنا خصمهم : رجل
اعتبد محرراً » :

تخريج الحديث :

لم أرم بهذا اللفظ ، بل هو ملفق من حديثين ، أحدهما صحيح
والآخر ضعيف .

الأول : عن أبي هريرة (رض) عن النبي ﷺ قال : « قال
الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر ،
ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه ، رجل استأجر أجنبياً فاستوفى منه
ولم يمهله أجره » . أخرجه البخاري (٤ / ٣٣١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤)

وابن ماجه ، والطحاوي في (مشكل الآثار) .

والثاني : عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « ثلاثة لا يقبل الله منهم صلاة : من تقدم قوماً وهم له كارهون ، ورجل أتى الصلاة دياراً والديار أن يأتيها بعد أن تفوته — ، ورجل اعتبد محرراً ، وفي رواية : محرراً » .

أخرجه أبو داود (١ / ٩٧) وابن ماجه (١ / ٣٠٧) والبيهقي (٣ / ١٢٨) وسنده ضعيف فيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي عن شيخه عمران بن عبد المعافري ، وكلاهما ضعيف ، ولذلك قال النووي : « انه حديث ضعيف » وسبقه إلى ذلك البيهقي ، لكن القضية الأولى منه صحت عنه ^{بإسناد} في أحاديث أخرى وردت بأسانيد صحيحة في سنن أبي داود . وأما الرواية الأخرى « أعبد محرراً » فلم أقف عليها (١) .

٣ - ص ١١٧ ، ورد في باب (التحقيق اللغوي) . « وجاء في الحديث النبوي ... » الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت »
تخريج الحديث :

أخرجه الترمذي (٣ / ٣٠٥) وابن ماجه (٢ / ٥٦٥) والحاكم

(١) هذا الحديث وأمثاله مما ورد في باب (التحقيق اللغوي)
- وفيها ما هو ضعيف - لم يورده الأستاذ المودودي لبيان حكم من
أحكام الدين أو نظرية من نظرياته ، وإنما أوردت لفلا عن كتب اللغة -

١١٥٧ : وأحمد (١٢٤ / ٤) عن طريق أبي بكر بن أبي مرزوم
القاساني عن حمزة بن حبيب عن شداد بن أوس مرفوعاً ، وقال
الترمذي : حديث حسن ، ! وقال الحاكم : « صحيح على شرط
البخاري » ، وتعقبه الذهبي بقوله : « قلت : لا والله » أبو بكر رواه ،
وقد أصاب — رحمه الله — .

٤ - ص ١١٧ ، ورد في باب (التحقيق القوي) أيضاً بيت من
أرجوزة الأعشى الحرمازي يمدح رسول الله ﷺ :
ياسيد الناس وديان العرب

تخريج الحديث :

أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد مسند أبيه ، رقم
(٦٨٨٥ و ٦٨٨٦) بأسنادين أحدهما ضعيف ، والآخر فيه رجالان
تفرد بتوثيقهما ابن حبان ، ومن المعلوم عند العلماء أنه متساهل في
التوثيق — كما بينه الحافظ ابن حجر في مقدمة (لسان الميزان)
ومع هذا فقد صحح هذا الاسناد الملقى على المسند الاستاذ
أحمد محمد شاكر على قاعدته التي جرى عليها في تعليقه هذا وفي غيره
من الاعتماد على توثيق ابن حبان خلافاً للمحققين من العلماء .

ليان معنى لفظ من الألفاظ كما استشهد به رجال الثقة لمحب ، وهذا يصح
فيه الاستئناس بما لم يبلغ الصفة من الأحاديث .
وأما سائر الأحاديث التي استشهد بها الأستاذ المودودي لبيان رأي الإسلام
الموضوعات التي طرقت ، فكلها من الصحيح كما ورد في هذا الملحق .

٥ - ص ١١٨ ، ورد في باب (التحقيق اللغوي) أيضاً حديث الخوارج : « يرقون من الدين مروق السهم من الرمية » .

تخريج الحديث :

أخرجه البخاري (١٢ / ٢٣٨ - ٢٥٤) ومسلم (٣ / ١٠٩ - ١١٧) عن طرق متعددة عن جماعة من الصحابة منهم علي بن أبي طالب ، وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله - رضي الله عنهم - .

٦ - ص ١١٨ ورد في باب (التحقيق اللغوي) أيضاً : « كانت قريش ومن دان بدينهم .. »

تخريج الحديث :

هو من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحُجَّس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفة ، فلما جاء الاسلام أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يأتي عرفات فيتف بها ، ثم يفيض منها ، ن ذلك قوله عز وجل « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » .

أخرجه البخاري (٨ / ١٥٠) ومسلم (٤ / ٤٣) والبيهقي (٥ / ١١٣) وغيرهم .

٧ - ص ١١٨ ، ورد في باب (التحقيق اللغوي) أيضاً : وفي الحديث أنه عليه السلام كان على ذنب قومه .

تخريج الحديث :

لم أجده بهذا اللفظ في شيء مما لدي من المراجع ، وإنما أوردته ابن الأثير في « النهاية » مادة « دين » دون عزو أو تخريج كما هي عادته في هذا الكتاب .

وأخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (ج ١ ق ١ ص ١٢٦) بسند صحيح عن السدي في قوله تعالى (ووجدك ضالاً فهدى) قال : « كان على أمر قومه أربعين عاماً » وهذا إسناد ضعيف معضل ، فإن بين السدي وبينه رحمته الله آمداً طويلاً ، ثم هو منكر واضح النكارة ، ولا يحتاج الأمر للاطالة ، وأقرب ما قيل في تفسير الآية المذكورة أنها كقوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ...) - الآية .

٨ - ص ١١٩ ، ورد في باب (التحقيق اللغوي) أيضاً : في الحديث عن ابن عمر أنه رحمته الله قال : « لا تسبوا السلاطين ، فإن كان لابد فقولوا : اللهم ذنبهم كما يدينون » .

تخريج الحديث :

لم أجده إلا في (النهاية في غريب الحديث) لابن الأثير ، وقد أوردته من حديث ابن عمرو ، وأما حديث ابن عمر فقد أوردته الشيخ إسماعيل العجلوني في (كشف الخفاء) ١ / ٤٥٦ ، بلفظ آخر وأيس فيه موضع الشاهد منه ، والله أعلم .

الفهرس

٣	تقديم
١٢-٥	مقدمة المؤلف
٧	أهمية المصطلحات الأربعة
٨	السبب الحقيقي لهذا الفهم الخاطيء
١١	نتائج هذا الفهم الخاطيء
١٣-٣٣	١ - الأول
١٣	التحقيق اللغوي
١٥	تصور الإله عند أهل الجاهلية
٢٢	ملك الأمر في باب الألوهية
٢٣	استدلال القرآن
٣٤-٩٤	٢ - الرب
٣٤	التحقيق اللغوي
٣٧	استعمال كلمة الرب في القرآن
٤٢	تصورات الأمم الغضالة في باب الربوبية
٤٢	قوم نوح
٤٥	عاد قوم هود
٤٦	ثمود قوم صالح
٤٨	قوم إبراهيم

٥٥	قوم لوط
٥٧	قوم شعيب
٥٩	فرعون وآله
٧٥	اليهود والنصارى
٧٩	المشركون العرب

٣ - العبادة ٩٥ - ١١٥

٩٥	التحقيق اللغوي
٩٨	استعمال كلمة العبادة في القرآن
٩٩	العبادة بمعنى العبودية والاطاعة
١٠١	العبادة بمعنى الاطاعة
١٠٣	العبادة بمعنى التأله
١٠٧	العبادة بمعنى العبودية والاطاعة والتأله

٤ - الدين ١١٦ - ١٣٠

١١٦	التحقيق اللغوي
١١٩	استعمال كلمة الدين في القرآن
١٢٠	الدين بالمعنى الأول والثاني
١٢٢	الدين بالمعنى الثالث
١٢٥	الدين بالمعنى الرابع
١٢٦	الدين المصطلح الجامع الشامل

ملحق بنفريج الازهاريت ١٣١ - ١٣٧